عائلة الثالوث القدوس

سلسلة العائلة والكنيسة

(١)

تعامل الأهل والأولاد في العائلة المسيحيّة

نُقل عن الإنكليزية

طبعة ثانية ٢٠١٤

جميع حقوق الطبع محفوظة
لعائلة الثّالوث القدّوس
دوما - لبنان

من كتاب "جعلُ الله حقيقياً في البيت المسيحي الأرثوذكسي"
لأنطوني كونياريس الطبعة العاشرة ١٩٧٧

مدخل

هذا كتيّب يعلّم الأب والأمّ كيفيّة التعاطي المبارك، بالكلمة والصلاة والمحبّة والتفاهم، مع أولادهما الذين أنجباهم في حبّ تعاطياه يوم أعلنا رفقتهما في مسيرة هذا العمر أمام الله وببركته. إنّه باكورة "سلسلة الكنيسة والعائلة" التي نرجو أن تسدّ فراغاً في مجال العائلة المسيحيّة والتربية البيتية الكنسيّة عندنا. إذا كانت الكنيسة أساسها في البيت فلا يسعنا أن نترك التنشئة البيتية مسيّبة لا سيما ونحن عرضة لتأثيرات بيئيّة ثقيلة. الروح الدهريّة، أو روح هذا العالم، تعصف. الاختلاط الديني والاجتماعي يخلق لدينا واقعاً هجيناً خطراً. وسائل الإعلام تحاول أن تختلس المستقبل منّا وتُفسد خراف المسيح من الداخل، في عقر دارنا، في البيت المسيحي، في الخليّة الأولى للكنيسة. لذا السكوت حرام واللامبالاة جريمة.

في الجزء الأوّل من هذه السلسلة نلقي الضوء على مسلّمات أساسيّة في تعامل أفراد العائلة، آباء وبنين وبنات، أحدهم مع الآخر. صحيح أنّ هذا الكتاب موجّه، في الأساس، للمؤمنين إلى بيئة غير بيئتنا، بيئة الكنيسة الأرثوذكسيّة في أميركا، لكن الملاحظات التي يوردها والحقائق التي يعبّر عنها تتخطّى تلك البيئة لتخاطب العائلات المؤمنة في كل مكان، لا سيما في هذا الزمان الصعب الذي قصُرت فيه المسافات وتداخلت الحضارات وبتنا، من خلال وسائل الإعلام، نستعير الكثير من الأفكار والممارسات لدى غيرنا، خصوصاً من البيئات الغربية، ولا سيما

الأميركية. هذا إلى جانب كون التوجّه الذي ينطلق منه صاحب الكتاب توجّها مسيحيّاً أرثوذكسياً أصيلاً، سواء من الناحية اللاهوتيّة أو من الناحية الرعائيّة.

في يقيننا أنّ صورة هذا الكتاب هي رسمُ وختمُ ما يرجوه الربّ لكل بيت هو أنشأه على قاعدة الإيمان والصلاة والحبّ الإنجيلي. فلنقرأه ولنفرح به. وإنّنا لننصح بتوزيعه ما أمكن على العائلات المسيحيّة لأنّ فيه ذخراً لكل بيت. ولنا رجاء بالله أنّه إذا ما اقتُبل برصانة وايجابيّة فإنّه سيزوّد العائلة بهوّاد تضيء النفوس في هذا السبيل الشائك، سبيل التنشئة المسيحيّة البيتيّة اليوم

والتوفيق، في كل حال، من لدن يسوع

في محبّة يسوع

الأم مريم (زكّا)

رئيسة دير مار يوحنا - دوما

أن تأتي بالمسيح إلى البيت

عندما نتكلّم على "المجيء بشيء إلى البيت" نقصد أن نأتي به إلى تلك المحاور – محاور الاهتمام – الحيويّة حيث، في الحقيقة، نعيش. هذا ما يُخفق العديدون منّا في فعله من جهة المسيح. نسبِّحه. نصلّي إليه. نعبده. نبني كنائس من أجله. لكننا نُخفق في أخذه معنا إلى البيت. نُخفق في المجيء بمحبّته، بمغفرته، بصبره، بفهمه إلى بيوتنا.

منذ بعض الوقت حكمَتْ المحكمة العليا* بعدم قانونية الصلاة والدراسة الكتابية في المدارس. ماذا فعل ذلك سوى أنه أعادنا إلى بيوتنا حيث كان كل شيء قد بدأ؟ على بيوتنا أن تصير مسيحيّة أكثر من أيّ وقت مضى. إذا لم يكن مأذوناً لأولادنا أن يُصلّوا في المدرسة فليسمعوكم أنتم – آباءهم – وأنتم تصلّون في البيت. إذا لم يتسنّ لهم أن يسمعوا الكتاب المقدّس يُقرأ في المدرسة فليسمعوه في البيت. قد تُخرَج الصلاة والكتاب المقدّس من مدارسنا ولكنْ لا طاقة لأحد على إخراجهما من بيتنا الذي هو أعظم مدرسة يتسنّى لأولادنا أن يرتادوها. لذا هات بالمسيح إلى البيت!

جورج سانتانايا، الذي علّم طويلاً وكان لامعاً في هارفارد، وُلد في أسبانيا. صار معلّماً للغة الإنكليزية الأنيقة كما تُظهِر كتبُه. لكنّه اعترف أنه لم يتآلف البتّة واللغة الإنكليزية لأنّه لم يتعلّم البتّة أن يتكلّمها في البيت عندما كان طفلاً.

---

* في الولايات المتّحدة الأميركية

نحن نعلم أنّ اللغة لا تبلغ مركز كياننا تماماً ما لم نتعلّمها باكراً ونتكلّمها في بيوتنا. المبدأ هو عينه في الدين. الإيمان الديني لا يبلغ مركز نفوسنا عندما يكون تركيباً مضافاً فينا من خارج بيوتنا. لذا عليك أن تأتي بالمسيح إلى البيت. صلّ مع أطفالك. اقرأ الكتاب المقدّس معهم. اقضِ بعض الوقت معهم. دعهم يرونك تصلّي كل يوم أمام إيقونة العائلة.

يُحكى عن أسقف أنه زار قبيلة في عمق إفريقيا فحيّاه رئيسُ شيخ قائلاً: "سيادة الأسقف، نحن نؤمن بالله. لكنّه أحياناً بعيد جداً. كنْ أنت الله لنا اليوم". بالنسبة للأطفال الأهل يمثّلون الله. هم الكهنة الحقيقيّون. وكما كتب عالم النفس الكبير فريتز كونكل: "لا يستطيع الطفل أن يميّز بين الأهل والله. بالنسبة إليه الأهل هم الله... فإذا كنّا آباء سيّئين فإنّ الطفل يتعلّم أن الله سيّء".

عليك أن تأتي بالمسيح إلى المنزل. تحدّث إليه كل يوم. أعط أطفالك أن يلتقطوا منك إشعاع حضوره وأنه حقيقي.

عندما استقبلت كاهن إحدى العائلات سأل الزوجة: "هل يقيم المسيح هنا؟" فذهبت إلى زوجها وأعادت السؤال عليه فأجاب: "قولي له إننا نذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد". فقالت الزوجة: "لكنْ ليس هذا ما سأله". سؤاله كان: "هل يقيم المسيح هنا في بيتكم؟"

فهل هو مقيم عندكم؟

هدية حضورك

أ. هنري، الذي هو كاتب أميركي بارز في مجال القصّة القصيرة، يروي قصّة يخبر فيها عن فتاة صغيرة ماتت أمّها واعتاد أبوها أن يعود إلى البيت من عمله ليجلس وينزع معطفه ثم يفتح جريدته ويشعل غليونه ويجعل قدميه على رفّ الموقد. كانت الفتاة تأتي إليه وتسأله أن يلعب معها قليلاً لأنها تشعر بالوحدة. فيقول لها إنه تعبان ولا يريدها أن تزعجه، ثم يشير عليها بأن تخرج إلى الشارع وتلعب. فكانت تلعب في الشوارع. ما هو محتّم حصل: صارت الفتاة ابنة شارع! ومرّت الأيام وتوفّيت. ثم إن روح الفتاة بلغت الأبواب اللؤلؤية فرآها بطرس فقال ليسوع: "سيّدي، ها هنا فتاة سيّئة. أظن أن علينا أن نرسلها مباشرة إلى جهنّم؟" فأجاب يسوع بلطف: "كلا، دعها هنا". ثمّ تجهّم وجهه وقال: "بل ابحث عن رجل رفض أن يلعب مع ابنته الصغيرة ودفعها للخروج إلى الشوارع، هذا أرسله إلى جهنّم!"

كم من هدايا غالية الثمن يقدّم الأهل لأولادهم ويعطي الأزواج لزوجاتهم في عيد الميلاد تكفيراً عن الذنب الذي يشعرون به لأن الوقت الذي أمضوه معهم كان قليلاً جداً؟ نحاول أن نقدّم بالهدايا الغالية الثمن ما لم نقدّمه ببلاغة أعمال المحبّة وأقوالها. مع ذلك فإنّ خير هديّة بإمكان الأهل أن يقدّموها لطفلهم، والرجل لزوجته، هي هديّة وقتهم وحضورهم. لا شيء البتّة يعوّض عن ذلك!

الأهل الذين يخصّصون أوقاتاً لأطفالهم إنما يقولون لهم: "نحن نحبّكم. أنتم مهمّون بالنسبة لنا. إحدى النساء استعادت مرّة إحدى ذكرياتها في شأن خبرة مهمّة في طفولتها. كانت هذه رحلةً خاصة قامت بها العائلة مجتمعة. قالت المرأة: "خير ما أذكر رحلة قمنا بها إلى واشنطن عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. إن أنسى لا أنسى والدي يدلّنا على كل المباني التذكارية. كنت فخورة بأنّه يهتمّ بنا بهذا القدر. شعرتني بالأهمية وبأني كبرت. شعرت بأني محبوبة!

اترك لهم ميراثاً من الذكريات السعيدة

ما نفعله، كأهل، مع أولادنا اليوم يخلق ذكريات سوف تباركهم أو تحطّمهم غداً.

قال أحدهم: "اللحظة يمكن أن تكون مؤقتة، أما الذكريات فإلى الأبد".

"الذكرى هي الفردوس الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يُخرجك منه لأنّه إن لم تكن لك ذكريات فلا تكون لك أحلام" (ليز أريكسون).

كم هو مهم أن نبني مخزناً من الذكريات الطيِّبة لأطفالنا عندما يكونون صغاراً!

في كتاب "كنز من الروحانية الروسية" نقرأ:

"لماذا انطباعات الطفولة مهمّة إلى حدّ بعيد؟ لماذا من الضروري أن نملأ عقل الولد وروحه بالمعرفة والمثال الطيِّب بدءاً بالمراحل المبكّرة من حياته؟ هذا لأننا في الأطفال نجد، غيرَ منقوصة، الطاقةَ على الإيمان والبساطة واللطف والمرونة والرأفة والخيال والوداعة. هذه بالضبط هي التربة التي تعطي حصاداً يزيد آلاف الأضعاف عن البذار الذي يُبذَر فيها. فيما بعد، في الحياة، عندما تقسو النفس وتصير كالصوّان يمكن الإنسان أن يتنقّى ويَخلُص برواسب خبرة الطفولة. لهذا السبب مهمّ جداً أن نحفظ الأولاد ملتصقين بالكنيسة – هذا يعطيهم غذاء لمجمل حياتهم".

أخبر سجين حرب سابق كيف أنّه أُلقي في السجن الإنفرادي من قِبَل هتلر. كل ما كان له أُخذ منه. الشيء الوحيد الذي بقي لديه كان ذاكرته. وقد كانت خلاصاً له. فإنّه وجد القوّة والعافية بترداد المزامير والأناشيد والآيات الكتابية التي حفظها عن ظهر قلب في البيت عندما كان صبياً. ذكريات الطفولة أنقذته!

جاء لاعب كرة قدم، مرّة، إلى أحد أصدقائه وأسَرَّ له بأنّه عاش إلى الآن في الفوضى الأخلاقية، لكنّه أضاف: "سوف أعود وأبدأ من جديد". "أتعلَم ما الذي حفظني من الإنفراط؟ ذكرى صلوات أبي! أنت لا تعرف ما تعنيه للولد أن يسمع أباه يصلّي، خاصة حين تكون حياة أبيه منسجمة مع صلواته".

أنقذته ذكريات الطفولة!

إذا كان الأب معتاداً أن يأخذ كلاً من أطفاله إلى تناول طعام الغداء خارج البيت مرّة في الشهر، غالباً لمجرّد تناول الهامبرغر، إذا كان الأب معتاداً أن يولي كلاً من أولاده اهتماماً خاصاً وفق حاجاته ويشعر الولد بأنه محبوب بصورة شخصية، إذا كان الأب ليفعل ذلك فكيف يمكن إلاّ أن يُترَك للولد ميراثٌ من الذكريات التي لا تُنسى؟

إحدى الأمّهات الشابات تبنّت فلسفة مفادها أنّه متى حصل تصادم بين اهتماماتها البيتية واهتمامها بأولادها فإنها دائماً ما تهتمّ بالأولاد. ما فكّرت فيه كان كذلك: "بعد عشر أو خمس عشرة سنة من الآن لن يذكر أحد ولن يهتمّ بما إذا كانت السجادة في غرفة الجلوس، في وقت من الأوقات، نظيفة. ولكن بعد عشر أو خمس عشرة سنة من الآن سيكون مهماً جداً ما إذا كنتُ قد كرّست وقتي لأولادي في ذلك اليوم أو في أي يوم آخر. فلسوف يذكرون".

ماذا سيقول أطفالك عنك بعد خمس عشر سنة من الآن؟ أيّة ذكريات طيّبة سوف تكون لهم؟ ماذا تُراك صانعاً اليوم لتجعل مثل هذه الذكريات ممكنة؟

إحدى العائلات في كولورادو حاولت، لسنوات، أن توفّر ما يكفي من المال لاستبدال حمامها القديم. لكن، كل سنة، كلّما حان موسم التزلّج كان المال المدّخر للحمام يتحوّل إلى رحلة العائلة للتزلّج.

اليوم يشعر الأهل بالسعادة أنّ الأمر حصل على هذا النحو. فالأولاد الآن كبروا وتزوّجوا. لكنهم متى راسلوا ذويهم يتحدّثون عن الأوقات الممتعة التي قضوها في التزلّج معهم. قال الأب وهو يستذكر: "لا يمكنني أن أتصوّر ابني يكتب ويقول لي: أبي، أذكر بالتأكيد حمّامنا المنتفخ!"

لذا خصّص وقتاً لتزرع ذكريات سعيدة في نفوس أولادك!

التلفزيون: باب إلى بيتك

الدكتورة مارغريت ميد، الخبيرة في علم الإنسان، تقول: "هذا هو الجيل الأول الذي ربّته وسائل الإعلام بدل أن يربّيه ذووه".

أحد علماء النفس يسمّي التلفزيون: "ساحراً يخطف الأولاد من ذويهم ثلاث أو أربع ساعات في اليوم أي ما مجموعه ٢٢٠٠٠ ساعة متى بلغوا الثامنة عشرة من عمرهم". الأهل، كما قال، يستعملون التلفزيون كحاضنة ومهدّئة لفترات طويلة جداً. إحدى الأمّهات في ضيقها، مثلاً، تحثّ ولدها المشاغب على تركها في سلام ومشاهدة التلفزيون. قليل هو الاهتمام الذي يُبديه الأهل، إن لم يكن معدوماً، بنوع البرنامج الذي يشاهده الولد. والنتيجة تكون أنّ عقل الولد ينشحن، منذ مرحلة الحياة المبكّرة والحسّاسة، بكل أنواع الأفكار من الشاشة، القليل منها صالح. هكذا يصل الأطفال إلى عمر المراهقة "غرباء عن أهلهم المنذهلين".

في شيكاغو وحدها جرى الكشف عن أنّه في غضون أسبوع واحد تُعرَض على شاشة التلفزيون للأولاد من عمر ما قبل المدرسة إلى الصف الثالث الجرائم التالية:

٩٣ جريمة قتل

٧٨ حالة إطلاق نار

٩ حالات خطف

٩ حالات سرقة

٣٣ حالة لعب عنيف

حالتا طعن بالسكّين

حالتا جَلْد

حالتا تفجير

ما العمل؟

بالنظر إلى كلّ ذلك وبالنظر إلى الأهمية البالغة التي يحتلّها التلفزيون في حياتنا ما هو الموقف الذي ينبغي على الأهل المسيحيّين الأرثوذكسيّين أن يتّخذوه من هذه الوسيلة؟

قبل كل شيء علينا أن ندرك أنّ شاشة الواحد والعشرين إنشاً تشبه باباً إلى بيتنا. كمسيحيّين علينا ألاّ نسمح لكل شيء أن يدخل من هذا الباب، خاصة عندما يشاهده الأولاد. على نوافذنا وأبوابنا نجعل، عادة، شريطاً لنمنع الحشرات من الدخول إلى الداخل ونتمتّع، في آن معاً، بالهواء المنعش. مثل هذا الشريط هو ما نحتاج إليه لجهاز التلفزيون أيضاً. قديماً كانت هناك أفلام سيّئة، ولكنْ كان الأولاد يذهبون إليها ويدفعون ثمن بطاقة دخول ليشاهدوها. أما اليوم فالتلفزيون يأتي بالجرائم والعنف مباشرة إلى غرفة الجلوس في البيت.

وعلى حدّ تعبير الدكتورة مارغريت ميد:

"نحن نَعرض على صغارنا عكس ما نريدهم أن يقتدوا به تماماً. نعرض عليهم صورة رجال يهاجمون غيرهم بعنف عندما يكونون غاضبين. نعرض صورة ناس يرتكبون الجرائم بسبب الحقد أو لأنّ ذلك يناسبهم. نعرض أن الحبّ لا يُعبَّر عنه سوى باشتهاء جسد الإنسان الآخر. وقليلاً ما نعرض عليهم غير ذلك!

لا وقت باق

وهناك خطر آخر من مشاهدة التلفزيون طويلاً وهو أنّ الوقت

الذي تستغرقه مشاهدة التلفزيون لا يترك مجالاً لبعض الخبرات العظيمة في الحياة. فلا وقت للعائلة ولا وقت للرجل والمرأة أن يجلسا ويتبادلا أطراف الحديث عن أفراحهما اليومية وعمّا يقلقهما وعن مخاوفهما ومشاكلهما. لا وقت لصلاة العائلة. لا وقت لرواية القصص. لا وقت لقراءة الكتاب المقدّس. أحدهم قال عن التلفزيون إنه أداة تُحوّل الأولاد من قوى لا تقاوَم إلى أشياء تتحرّك! كم هذا صحيح! إذا تناولت العائلة الطعام على صوان في غرفة الجلوس فإنّ العيون كلّها تكون مسمّرة على شاشة التلفزيون. لا محادثة. فكأنّك جالس في مشرحة. إذا كانت العائلة في غرفة الطعام فإنّ الأبدان تكون منعطفة يميناً أو يساراً ليتسنّى لأفراد العائلة مشاهدة أحد الأفلام في الغرفة المجاورة. العائلة كوحدة تعاني من كل ذلك. لم يعد هناك أخذ وعطاء كما في الماضي. برامج التلفزيون تتدخّل لتشقّ العائلة، لتمنع الاتصال، لتُحدث سوء تفاهم وغضباً وشعوراً بالعزلة في البيت الواحد.

لسنا في معرض إدانة التلفزيون. بعض برامج التلفزيون ملهمة وتربوية. هناك استعراضات عديدة صحّية ومريحة لكل أفراد العائلة. بإمكان التلفزيون أن يفتح نوافذ العالم كلّه للأولاد. بإمكانه أن يوسع آفاقهم. أولاد التلفزيون اليوم يعرفون عن العالم متى بلغوا سنّ المراهقة المبكّرة أكثر مما تَعلّمنا نحن عبر كل سنوات الدراسة. والتلفزيون ساعد كثيراً في زيادة هذه المعرفة. بعض برامج التلفزيون ينبغي أن تشاهده كل العائلة وتناقشه.

لسنا ديّانين للتلفزيون ككل كما أننا لسنا ندين الأفلام ككل. لكننا نقول إن هناك برامج تلفزيونية – كما أنّ هناك بعض الأفلام – لا يناسب الأولاد ولا حتى الراشدين أن يشاهدوها.

كن انتقائياً

ماذا علينا أن نفعل؟ أقلّ الإيمان أن يأخذ الآباء والأمّهات على عاتقهم معرفة ما يشاهده أولادهم عبر الشاشة الصغيرة والأفلام وأن يمنعوا عنهم الاستعراضات التي تضرّ بأخلاقهم. أكثر الذين يصنعون الأفلام والبرامج التلفزيونية لا يهمّهم الأولاد. همّهم كيف يحقّقون الأرباح ولو على حساب اللياقة العامة. على الآباء والأمّهات المسؤولين أمام الله عن سلامة أولادهم أن يكونوا مهتمّين بالأمر. على عاتقهم تقع مهمّة اختيار البرامج التلفزيونية والأفلام التي سيشاهدها أولادهم. الرقابة كالمحبّة تبدأ في البيت.

إذا كنا نغضب لأنّ عامل محطة البنزين يجعل في خزّان زيت سيارتنا زيتاً رديئاً أو لأنّه يترك البنزين يفيض من خزّان بنزين سيارتنا – وهذا نفعله لأننا نهتمّ بسيّارتنا – أيجوز لنا ألاّ نهتمّ بالمرّة بما يُسكَب في نفوس أولادنا وهي خالدة؟

إذاً نهتمّ! علينا أن نهتمّ لأن أولادنا يجلسون إلى التلفزيون ساعة فساعة. ونحن نسمح لوجدانهم الطري أن يتكوّن بتأثير الشاشة الصغيرة والأفلام التي يشاهدونها أكثر من تأثيرنا نحن أهلهم.

الله يحبّنا حتى عندما نكون • نزقين •*

الله يحبّنا كما نحن. هذا لا يعني بالضرورة أنّه يحبّ الأعمال التي نعملها. فهو يتابعنا دائماً. الإيمان بهذا الأمر يساعدنا في فهم المحبّة التي ينبغي على الزوج والزوجة أن يختزناها أحدهما للآخر ولأولادهما. إنها محبّة من دون أسلاك مربوطة بها. ليس علينا أن نثبت أنفسنا لله. نحن لا نربح محبّة الله بقوّتنا. فَهْم ذلك أمر أساسي لكل العلاقات بين الزوج والزوجة والأهل والأولاد.

يتبع ذلك أنّ علينا أن نقبل كل واحد في العائلة وأن نثق بأولادنا وأن نحبّهم كما هم. ولكن من جديد نقول إنّ هذا لا يعني بالضرورة أن نحبّ كل ما يعملونه. مثلاً كم من أولادنا على حقّ في أن يشكّوا في محبّتنا لهم بسبب ردّ فعلنا على التقارير المدرسيّة بشأنهم؟

أحد العمّال الإجتماعيّين روى قصّة جوني وهو صبي "تزق" بشكل يبدو كأنّه لا يقبل الإصلاح. جوني عاش في ميتم. عدّة أزواج أخذوه إلى بيوتهم آملين في أن يتبنّوه، لكنّهم كانوا يردّونه إلى الميتم بسبب نزاقته.

ذات يوم زار زوجان شابان الميتم وعاينوا جوني وسألوا عنه. فأُخبرا أنّ سجلّه عاطل. بعد أيام قليلة اتّصلا ليقولا إنّهما يودّان تبنّي جوني. ولما سُئلا ما إذا كانا يرغبان في أخذه لعدّة أسابيع على أساس

---

* نزق يعني "رزيل".

تجريبي رفضا ذلك وأصرّا على تبنّيه كما هو.

ذهب جوني إلى البيت معهما. ولم يطل به الوقت حتى أخذ يسبّب لهما المتاعب. على الأثر قال لهم بعفوية: "ألن تعيداني إلى الميتم؟ غيركم من قبلكم فعل ذلك".

- "كلا يا جوني. لن نعيدك إلى الميتم. نرغب في أن تبقى معنا".
- "أتريدان أن تقولا إنّكما ستبقياني هنا حتى لو كنت "نزقا"؟
- "أجل! لقد تبنيّناك فصرت ابناً لنا. وستبقى دائما ولدنا. وسوف نحبّك كابن لنا. الطريقة الوحيدة لخروجك من بيتنا هي أن تغادرنا أنت إذا رغبت في ذلك. أمّا نحن فلن نتخلّى عنك أبداً".

هذه المحبّة التي قبلت جوني كما هو غيّرت مجرى حياته.

بهذه الطريقة بالذات يحبّنا الله. ليس صحيحاً أبداً أنّ الله يحبّنا فقط إذا كنّا صالحين. محبّته لنا دائمة، في كل الأحوال. هذه هي المحبّة التي يجدر بالأهل أن يُظهروها لبعضهم البعض ولأولادهم.

سَلْ نفسك: هل أُحبّ أولادي بلا شرط أما محبّتي لهم متوقّفة على ما يعملونه؟

المحبّة تتأنّى
خصوصاً في البيت

يُخبرنا القدّيس بولس أنّ صفة من صفات المحبّة أنّها تتأنّى (١ كو ١٣: ٤). إذا كانت المحبّة تتأنّى فالتأنّي يجب أن يشعّ بكل جماله ورفقه خصوصاً في البيت. لأن هذا هو المكان الذي نعيش فيه مع ناس هم الأقرب إلينا والأعزّ علينا.

غير أنّ العكس غالباً هو ما يحدث. نعامل ضيوفنا في البيت بتأنٍ كبير. إذا سكب أحدهم القهوة سهواً على السجّادة للحال يعذرونه ويقولون له: "لا تبالِ بالأمر! هذا يمكن أن يحصل لأي كان. والسجّادة عتيقة في كل حال. ثم إن القهوة لا تترك آثاراً باقية على السجّاد.

أمّا إذا حصل لأولادنا أن تعرّضوا للأمر عينه فإنّنا نوجّه لهم الكلام بشكل لاذع قائلين: "مسطول أخرق! أليس بإمكانك في حياتك أن تُحسِن عمل شيء؟ ألهذا الحدّ أنت بلا إحساس؟ أليس في وسعك أن تمسك بشيء دون أن توقعه؟"

إفحص للحظة كيف يعامل الأب زبائنه في العمل. مهما قالوا ومهما فعلوا فإنّهم دائماً على حقّ. لا يحاول أبداً أن يستسلم للانفعال مخافة أن يخسر عملية البيع. لذا يستعمل لهجة طيّبة وناعمة جداً عندما يوجّه كلامه إليهم. دائماً ما تجده متأنّياً متملّقاً.

ولكن حاذر متى عاد إلى البيت! لا يمكنك أن تصدّق أنّه الشخص نفسه. كل موقفه يتغيّر. لهجة صوته تصبح قاسية. مزاجه يكون متفجّراً. الكلمات تكون لاذعة. يصير كأسد زائر!

لو كنا لنعامل أولادنا بالتأنّي والمراعات عينها التي نعامل بها ضيوفنا وزبائننا، كم تكون أجواء بيوتنا مختلفة! كم تكون أكثر سعادة وأشدّ سروراً! كم تصير ملأى بالذكريات السعيدة!

ألسنا ندّعي أن أولادنا هم نِعَمٌ صغيرة من عند الله؟ ألسنا نقول عنهم إنّهم ضيوف من السماء في بيوتنا؟ لماذا لا نعاملهم كذلك؟

الأولاد مرآة تعكس أهلهم إذا كانوا يحبّونهم وردّ فعل عليهم إذا كانوا يكرهونهم. إذا عاملنا أولادنا بلا تَأنٍ فإنّ هذا يشحنهم بالحقد ويؤدّي بهم، في نهاية المطاف، إلى التمرّد. لكنّنا أذا عاملناهم بتأنٍ فإنّ هذا يكون مثلاً صالحاً لمحبّة الله لهم حتى متى صلّوا: "أبانا الذي في السماء..." تكون صورة الله كأب، بالنسبة إليهم، صورة محبّبة وجذّابة.

تذكّر: "المحبّة تتأنّى"، خصوصاً في البيت، مع أقرب المقرّبين والأعزّ لدينا!

مساعدة الأولاد على قبول أنفسهم كأشخاص نافعين

ما هو رأيك في نفسك؟

يقول لنا علماء النفس إنّ هذا هو أحد أهمّ الأسئلة في حياتنا. كل شيء نفعله تقريباً يبدأ من نوع صورتنا عن أنفسنا. الإنسان الذي يعتبر نفسه فاشلاً سوف يجد طريقة توقعه في الفشل مهما كانت الفرص السانحة له طيّبة. أمّا الإنسان الذي يعتبر نفسه ناجحاً فسوف ينجح بغض النظر عن العوائق التي عليه أن يواجهها.

الدكتور كارل روجرز، وهو عالم نفس مشهور، كتب يقول:

"تعاملت مع أفراد مضطربين وعسري التوافق مع بيئتهم... ولو تسنّى لي أن أبحث عن الصعوبة المركزية في الناس كما عرفتهم لقلت إنّهم، في معظم الحالات، يحتقرون أنفسهم وينظرون إلى أنفسهم كغير نافعين وغير قابلين للمحبّة". هذا الأمر صحيح بالنسبة للجانحين. وهو صحيح بالنسبة لمن يعانون الاضطرابات العاطفية. وهو صحيح أيضاً بالنسبة للعديد من المجرمين. فإنّهم يعتبرون أنفسهم غير نافعين ويتصرّفون على هذا الأساس في حياتهم. ولكن، في حالات عديدة، التغيّر في صورتهم عن أنفسهم يغيّر طريقة حياتهم.

كيف يمكن للشخص أن يكتسب صورة سليمة عن نفسه؟ كيف

يمكننا أن نساعد أولادنا في قبول أنفسهم باعتبارهم نافعين وأصحاب قدرات؟

الخطيئة

إن أحد أبرز الأسباب التي تدمّر الصورة السليمة عن النفس هو الخطيئة. بعد أن يقع الإنسان في الخطيئة فإنّ صورته عن نفسه تتأذّى كثيراً. يعذّب الإنسانَ الشعورُ بأنّه لا ينفع. يبغض نفسه. لهذا السبب من المهم بمكان أن يأتي كل منّا بخطاياه إلى المسيح كل يوم، لكي يتوب ويطلب المسامحة في الصلاة وبواسطة سرّ الاعتراف. فقط مسامحة المسيح لنا يمكن أن تعطينا ذاتاً نقدر أن نعيش معها.

النجاح والفشل

إن جزءاً من صورتنا عن أنفسنا يتكوّن من الخبرات الناجحة أو الفاشلة في ماضينا. لكنْ، عندنا ميل إلى نسيان خبراتنا الناجحة والتركيز على خبراتنا الفاشلة. بدل أن نقول مثلاً: "أخفقت في ذاك الامتحان" نقول: "أنا فاشل". بدل القول: "أخفقت في تنفيذ هذا الأمر" نقول: "أنا لا أنفع". هذا، بالطبع، فعل انهزام ذاتي. لا أحد في منأى عن الإخفاق. لكنّنا نتعلّم من الإخفاق. ننمو. لكي تكون لنا صورة ذاتية سليمة نحتاج لأن نتذكّر لا فقط إخفاقنا ولكنْ نجاحنا أيضاً. الأهل بحاجة لأن يشيروا إلى ذلك باستمرار في تعاملهم مع أولادهم.

الأهل

قناعتنا بشأن أنفسنا تتكوّن أيضاً من الطريقة التي يعاملنا الناس

بها، لا سيما في طفولتنا المبكّرة. فالطفل، مثلاً، يكتسب موقفاً حيال نفسه كمقبول أو غير مقبول، كنافع أو غير نافع، كقادر أو غير قادر، كمحبوب أو غير محبوب من الموقف الذي يقفه أهله منه. فموقف الأهل مرآة يعاين الولد فيها نفسه. إذا كان الأهل يحترمون الولد فإنّ الولد يتعلّم أن يحترم نفسه. وإذا أحبّوه فإنّه يتعلّم أن يحبّ نفسه. إذا وازَوا بين النقد والتقدير فإنّ صورة الولد عن نفسه تتعزّز. بكلام آخر، أن نعتبر أنفسنا نافعين أو غير نافعين هذا تقدير ينعكس علينا. نحصّله من الآخرين، كيف ينظرون إلينا، خصوصاً أهلنا.

الله

إذا كان رأي الآخرين فينا يؤثّر في صورتنا عن ذواتنا فبالأحرى موقف الله منّا يؤثّر. عندما مات المسيح من أجلنا أنفذ المسمار الأخير في تابوت نظرة الإنسان إلى نفسه أنه لا ينفع. إذا كان في وسعنا أن نحكم على لوحة فنّية من الثمن الذي يُدفع عنها فإنّ في وسعنا أن نحكم على قيمة الإنسان من الثمن الذي دفعه الله لافتدائه: دم ابنه الوحيد، يسوع. إذا كان الله قد بذل ابنه الوحيد من أجلنا فإنّ هذا يُظهر القيمة التي لنا في عيني الله. هذا يبيّن أنّ كل واحد منّا إنّما هو حبيب الله والله يهتمّ به اهتماماً كبيراً ويسامحه برأفة وقد خلق العالم من أجله ومن أجله أعدّ السماء. فإنّ الإنسان فائق حتى على الملائكة لأنّه لم يُخلق ملاكٌ، البتّة، على صورة الله وشبهه كما خُلق الإنسان. والله، الذي هو فائق العظمة بحيث لا يسعه الكون، يأتي ليقيم سرّياً في قلب الإنسان. محبّته للإنسان عظيمة جداً! أحد كبار القدّيسين المعاصرين في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، القدّيس قوزما الإيتولي، اعتاد أن يقول وهو يبشّر القرويّين اليونانيّين: "كل واحد منكم

أثمن عند الله من كل العالم".

هناك قصّة عن أحد الأفارقة كان يقف دائماً ورأسه وكتفاه يعلوان على أهل قبيلته. كان دائماً يمشي وكتفاه إلى الخلف ورأسه عال. أحد الناس سأل مَن يكون هذا الرجل فجاءه الجواب التالي: "إنّه ابن الملك وهو لا ينسى ذلك أبداً".

نحن أيضاً أولاد الملك العظيم للكون، لكنّنا ننسى ذلك أحياناً وندع أكتافنا تهبط. نسقط في الشعور بعدم الأهمية ونسأل أسئلة كهذه: "مَن أنا لأطلب من الله شيئاً لنفسي؟ في نهاية المطاف، أنا صغير وغير مهم وهو فائق العظمة! كيف يمكن أن يعيرني أي اهتمام وهناك الملايين من الناس على الأرض؟"

لحسن الحظ الله لا يعتبرنا غير مهمّين إلى هذا الحدّ. لو كنّا نعرف كم نعني بالنسبة إليه وكم نحن مهمّون لديه وكم يحبّنا وكم هو متلهّف لأن يسمع صوتنا، لو كنّا نعرف كلّ ذلك لما كنّا نتردّد في المجيء بطلباتنا وحاجاتنا إليه.

المسيحيون الأوائل كانوا ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم مهمّون جداً. فقد سأل القدّيس بولس أهل كورنثوس: "ألستم تعلمون أنّ جسدكم هو هيكل الروح القدس فيكم؟"

والرسول يوحنا قال: "انظروا أية محبّة أعطانا الآب أن نُدعَى أولاد الله". ماذا تظنّ في نفسك؟ المسيحي يجيب: "أظنّ في نفسي أنّي ابن الله، محبوب لديه، مفتدى بدمه العزيز، ومصيري أن أحيا معه إلى الأبد. لهذا السبب أحبّ نفسي. لن أتصرّف كأنّي نكرة لا تنفع بل كشخص عزيز وابن ملك. لن أسمح للخطيئة أن تجعلني أشعر بأنّي لا أنفع لأنه ليست

هناك خطيئة إلاّ ويغفرها السيّد لنا. لن أسمح للفشل أن يجعلني أشعر بالدونية، لأن الفشل، بمعونة الله، هو حجر أرتقي به إلى ما هو أعلى وأفضل. عاين صليبه كمثَل. حتى لو احتقرني الناس فسوف أذكر أن الله لا يحتقرني لأنه يحبّني. وهذا هو المهم. سوف أسعى إلى محبّة نفسي دائماً كشخص مهم، محبوب بعمق من الله، وسوف أحاول أن أحبّ الآخرين لكي يتسنّى لهم أن يحبّوا أنفسهم كأولاد لله محقّقين صورة الله فيهم.

لذلك نقترح أن يكرّر الأهل الأرثوذكسيّون هذا القول أعلاه ما أمكن مع أولادهم. أكثر من ذلك أن يعكسوا هذا الموقف لأولادهم، موقف أنهم نافعون. فإنّ إحدى أبرز الهدايا التي يمكننا أن نقدّمها لأولادنا هي أن نساعدهم في رفع مستوى تقديرهم لذواتهم.

أن نكون حاضرين بالكامل

قال مارك فان دورين مرّة:

"هناك أمر واحد بإمكاننا أن نفعله والناس الأكثر سعادة هم الذين يفعلونه في حدود طاقتهم.

بإمكاننا أن نكون حاضرين بالكامل. بإمكاننا أن نكون هناك بالكليّة. بإمكاننا أن نضبط ميل عقولنا إلى التيهان عن الوضعية التي نحن فيها الآن سواء في اتجاه البارحة أو في اتجاه الغد أو في اتجاه أمر نسيناه أو في اتجاه مكان آخر سوف نتوجّه إليه فيما بعد. هذا صعب علينا ولكنه أصعب أن نفهم، فيما بعد، الحالة التي أخفقنا فيها. إنها الحالة التي كففنا فيها عن الإنتباه بالكليّة إلى الشخص وإلى الفرصة التي أمامنا.

إن الذين يأسفون أقل من سواهم هم الذين يعتبرون اللحظة الآنية من حيث هي وحدها النافعة لهم. هذه لن تعود ثانية، لسوء الحظ أو لحسن الحظ. وحدها نصيبنا وبإمكاننا أن نصنع منها ما نشاء".

إذ نأكل لا نأكل

من قصص أدب الشرق الأقصى حديث معلّم مع راهب:

- هل تبذل جهداً لتضبط نفسك في الحقّ؟
- أجل، أفعل ذلك
- كيف تتمرّس على ذلك؟

- عندما أكون جائعاً آكل وعندما أكون تعباً أستريح

- هذا ما يفعله كل إنسان. هل يمكن القول إنّهم يتمرّسون بنفس الطريقة التي تفعلها أنت؟

- كلا

- لِمَ لا؟

- لأنّهم عندما يأكلون لا يأكلون بل يفكّرون بأمور أخرى متنوّعة مفسحين في المجال لأنفسهم أن يكونوا في القلق. وعندما ينامون لا ينامون بل يحلمون بألف أمر وأمر يقطع عليهم نومهم. لهذا السبب ليسوا مثلي".

كم هو نادر أن نكون حاضرين بالكامل لما نقوم به في هذه اللحظة. إليك بالمثل التالي:

رجل الأعمال المتوسط العمر الجالس إلى المائدة العائلية مهتم بحاجته إلى عملية جراحية وبالنفقات المترتبة عليها وبالمواعيد الأخيرة التي عليه أن يراعيها قبل أن يأخذ إجازة من عمله، وبالمضاعفات المحتملة بعد العملية الجراحية. هذه الاهتمامات تمرّ في ذهنه لدرجة أنّه بالكاد ينتبه إلى طعامه أو إلى أحبّائه الجالسين إلى المائدة معه.

وابنه الجالس إلى الطاولة مثله يمكن أن يستغرق في التفكير بالصبية التي التقاها بين الحصص في المدرسة. وإذ يكون منشغلاً بها تلقاه غافلاً عن أبيه وأمّه اللذين يتناولان الطعام معه.

وأمّه الجالسة بقربه إلى المائدة، يمكن أن تكون مهمومة في شأن آخر يصرف اهتمامها عن العشاء العائلي ويسبّب لها قلقاً كبيراً.

لا أحد من هؤلاء الأشخاص، رغم كونهم أعضاء في عائلة واحدة وجالسين إلى مائدة واحدة، حاضر تماماً للآخرين، فهم بعيدون أميالاً

بعضهم عن البعض الآخر تغلّفهم أفكارهم الخاصة ومخاوفهم بشأن الغد. وإذ لا يكونون، في الحقيقة، حاضرين تلقاهم غرباء تماماً أحدهم عن الآخر.

أحد أسوء الأمور التي نفعلها بأولادنا هو أن نهتمّ بهم نصف اهتمام لأننا باهتمامنا بهم نصف اهتمام نعطيهم نصف أنفسنا. نصف فطنة هي سمة مَن كان حاضراً نصف حضور فقط.

أعظم أنواع المحبّة

لنحسب أنّك أتيت إليّ، وأنا كاهن، في الكنيسة وكنت أنظر إلى ساعتي بين الفينة والفينة منشغل البال بشأن موعدي التالي، فإنّك ستشعر بجرح عميق لأنّي لا أكون قد أوليتك اهتمامي كاملاً. ستكون أقلّ انفتاحاً مما لو أوليتك كل اهتمامي في هذه اللحظة. فإنّك خبرت عصبيّتي واستعجالي وقلّة انتباهي وكأنّها قلّة اهتمام بك. وهذا يجعلك تنفر تماماً. لذلك بصورة آلية، إذا كنّا حضرين بالكليّة للناس، إذا تصرّفنا باعتبار أنّ الشخص الذي هو معنا، في هذه اللحظة، هو الشخص الوحيد الموجود، إذا أوليناهم انتباهنا الكامل غير منقوص عندما نكون معهم فإنّ العلاقة بيننا يمكن أن تصير حقيقية أكثر ومُحبّة أكثر وتأثيرها أكبر في حياتنا.

أن نكون حاضرين للناس بالكامل هو، بالأحرى، أعظم أنواع المحبّة التي بإمكاننا أن نقابلهم بها، لأننا بطريقة غريبة نعطيهم كل انتباهنا. لعلّ هذه هو الطريقة الحقيقية الفضلى لتقدير الشخص ككائن بشري – أن نكون معه بالفعل وأن نعامله بجدّية كما هو. عمل اتصال واحد، من هذا النوع، يمكن أن يغيّر بالكامل مجرى حياة إنسان.

إحدى النساء الحدثات أخبرت عن خبرة كانت لها عندما كانت في

الثانية عشرة من عمرها. الدكتور ألتون تروبلود، الفيلسوف والواعظ المسيحي الكبير، كان يتكلّم في المدينة حيث كانت تعيش. كان قد نزل في منزل والديها. وقد نقلت أنّه خلال الأيام القليلة التي كان فيها هناك تحدّث إليها وطرح عليها عدّة أسئلة وأصغى بالفعل إلى ما رغبت في أن تقوله، كما فعل الأمر عينه مع ذويها. وأردفت أنّه رغم جهله لها، تلك الخبرة القصيرة كفتاة عوملت كمسيحية أصيلة لبقة جعلتها ترغب في أن تصير كذلك فعلاً وغيّرت مجرى حياتها.

مثال يسوع

أهمّ الأمثلة على ذلك ربّنا يسوع المسيح الذي دائماً ما كان حاضراً للناس. من أمثلة ذلك أنّه لاحظ زكّا المختبئ في شجرة ودعاه ليتناول الطعام عنده. وكذلك سمع نداء الأعمى الفقير بجانب الطريق واستجاب له وشفاه. كما سمع صراخ اللصّ التائب على الصليب وقال له: "اليوم تكون معي في الفردوس".

كم من مرّة يأتي الناس إلينا، الأولاد إلى ذويهم والنساء إلى أزواجهم والأصدقاء إلى أصدقائهم، ويحاولون أن يفرغوا أحمالهم فيما نجلس ونصغي ولكن تكون عقولنا وقلوبنا بعيدة آلاف الأميال. لو كنّا حاضرين بالكامل بعضنا للبعض الآخر لأمكننا أن نتوقّع، عن حقّ، أن تحدث عجائب. أن يكون المرء حاضراً بالكامل معناه أن يهتمّ وأن يحبّ وأن يربح هبة في غاية الأهمية وهي التفهّم.

الدكتور بول توريني، في كتابه "كتاب حالات الطبيب" يقول إنّ المريض يقول له أحياناً: "إني معجب بالصبر الذي به تصغي إلى كل ما أقوله لك". ثم يقول: "هذا ليس الصبر بالمرّة بل هو الاهتمام".

الاهتمام الحقيقي والحوار الحقيقي يحصلان فقط في اللحظة الراهنة، عندما يكون شخصان حاضرين تماماً أحدهما للآخر، خصوصاً الأهل والأولاد.

في المرّة القادمة عندما تكون مع زوجك أو مع زوجتك أو مع الأولاد أو مع صديقك حاول أن تكون إليه بالكامل وترقّب عجيبة تحدث.

مواعظ نلقيها لأهل

ذات يوم قال القدّيس فرنسيس الأسيزي لراهب في دير ريفي: "سنذهب اليوم إلى البلدة لنعظ". ساروا على امتداد الطريق الريفي إلى المدينة ثم عَبْر المدينة فإلى خارج المدينة ثم عادوا إلى الدير.

التفت الراهب إلى القدّيس فرنسيس وقال له: "ظننت أننا سوف نعظ اليوم!"

"هذا ما فعلناه! وعظنا ونحن سائرون".

كل إنسان يعظ وهو يسير في الحياة. العظات التي نلقيها بمثالنا وتأثيرنا أكثر فعالية بكثير من العظات التي تُلقَى من المنبر. إنّه لفكر رزين أن نعرف أنّ حياتنا مشعّة دائماً أو هي تنشئ حوافز للإثم، وهذه موجات تأثير ليس في وسعنا البتّة أن نضبطها أو نوقفها.

فكّر في المواعظ التي يلقيها الأهل على أولادهم بمثالهم اليومي. يسرق الولد عود كَراميل فيَلقى صفعة. ثم يغسل يديه وينشّفهما بمنشفة سبق للأهل أن اختلسوها من أوتيل الهيلتون! فكّر في الدروس التي يتعلّمها الصغار من مراقبة الكبار.

فكّر في العظات التي نلقيها نحن المسيحيّين على جيراننا. هنري دراموند، وهو أستاذ سكوتلندي كبير، يحكي قصّة كيفية تأسيس نادي الملحدين في غلاسكو. بعض الرجال كان واقفاً في زاوية شارع عندما

عبر بهم رجل بدا ثرياً جداً. أحد الواقفين قال: "هذا هو مؤسّس نادي الملحدين في غلاسكو". "ماذا تعني بذلك؟" "لماذا؟ هذا الرجل هو أحد شيوخ الكنيسة". "شيخ أو غير شيخ، هو مؤسّس نادي غلاسكو للملحدين". ثم أخبر كيف أنّ سيرة الرجل المرائية، التي لا يتّفق فيها كلامه مع سلوكه، أدّت، على مدى سنوات، شهادة زور للمسيح لدرجة أنّها عطّلت إيمان العديد من الشبّان الذين اجتمعوا ليؤسّسوا نادي الملحدين.

فكّر في العظات التي نلقيها كل يوم ونحن سائرون في الحياة. ليس أحد جزيرة. عن وعي أو عن غير وعي الناس يتأثّرون بمثالنا.

مسيحيّون ذوو أمانة فائقة

من الأجهزة الألكترونية العجيبة لاعبة الأسطوانات المعروفة بـــ"الهاي فاي" أي الفائقة الأمانة. هذه تستعيد التسجيلات من خلال سمّاعات على درجة فائقة من الأمانة للأصوات الأصلية. الأمانة فضيلة ذات قيمة عظيمة سواء في الناس أو في أجهزة التسجيل. ولأننا نحن مسيحيّون فإنّ الحياة بالنسبة إلينا هي مشروع هاي فاي خاص. الأصل هو الربّ يسوع المسيح. منه نسمع ما يريدنا أن نكون. ونحن ننتج ذلك في حياتنا بالأمانة الممكنة. إنّ الحاجة اليوم وكل يوم هي إلى مسيحيّين ذوي مستوى فائق من الأمانة لا يكتفون بمجرّد الحديث عن المسيح بل يخرجون إلى العالم ليكونوا مسيحاً للذين هم من حولهم.

كيف يمكن للواحد منّا أن يكون مسيحياً فائق الأمانة؟

إذا أحببنا المسيح أكثر وعشنا معه بحميمية أكبر وتحدّثنا إليه بتواتر أكبر وأصغينا إليه بانتباه أكبر وأطعناه ضمناً بصورة أوفى واقتبلناه بانتظام أكبر في سرّ الشكر (المناولة المقدّسة) فإنّه يصير بإمكاننا أن نعكس

قوّة محبّته في حياتنا اليوميّة على نحو أكثر إشعاعاً وأكثر تمجيداً.

أحد التلاميذ الهنود قال لأحد المرسَلين يوماً: "نحن، أحياناً، نتعب من السماع عن المسيح، المسيح. ولكنّنا، سيّدي، لا نتعب أبداً من رؤية المسيح في شخص يشبه المسيح!"

بحث حديث عن الآباء

أحد الأبحاث الحديثة أظهر أنّ الطريقة التي يتعاطى فيها الأب إيمانه لها أبلغ الأثر في الطفل. في إحدى الرعايا أظهرت دراسة أنّه حيث يعبد الآباء مع أولادهم فإنّ خمسة وثمانين بالمائة منهم يحفظون الأمانة للكنيسة، وحيث اشترك الطفل في عبادة لم يُبدِ الأهل اكتراثاً بها فإنّ خمسة عشر بالمائة فقط حفظوا الأمانة.

إذا جلس الولد بجانب أبيه في العبادة فإنّه يلتقط أمراً لن يفارقه أبداً. إنّ ساعة العبادة ترافق إحساساً عميقاً بالتوقير والاحترام في العبادة. فإذا شكونا أنّ الأولاد لا يبدون احتراماً لله فإنّ السبب الذي علينا أن نبحث عنه هو نحن، الأهل. درْهَم أُمّ أو أب خير من قنطار كاهن.

هل يعاين أولادنا إنجيل يسوع في حياتنا؟ هل نتعامل بمحبّة واحترام؟ إذا لم نتعامل كذلك فهل ترانا يسامح أحدنا الآخر بسرعة؟ هل نصلّي معاً كعائلة؟ هل نشجّع الأطفال على الصلاة وقت المائدة؟ هل نشترك بانتظام في الليتورجيا والأسرار؟ هل نقرأ الكتاب المقدّس بانتظام كعائلة؟ هل نحاول كأهل أن ننمو في فهم إيماننا؟

بعدما خُطف كلود فلاي، وهو خبير زراعي يعمل كمستشار في إحدى دول العالم الثالث، من جانب اليساريّين ثم جرى إطلاق سراحه

سئل: "ما الذي أعانك خلال فترة سجنك؟" فكان جوابه: "إنّ الإرشادات أتتني من والدي إذ كان كل ليلة يقود العائلة في قراءة الكتاب المقدّس والصلاة، وكذلك إذ كان يسلك كل يوم بحسب ما ورد في الكتاب ويعظنا نحن الأولاد أن نتعلّم الصحّ من الغلط ونجاهد لنسلك في حياة مسيحيّة".

ولما سُئلَت أمّ مسيحيّة كيف كان بإمكانها أن تُنشئ سبعة أطفال بديعين أجابت أن سرّها الأوحد كان أن تسلك أمامهم تماماً في السيرة التي كانت ترغب في أن يسلكوا هم فيها.

بما أنّ الأهل هم الذين أعطوا الحياة لأولادهم فعليهم يقع واجب تربية عائلتهم. لذا ينبغي اعتبارهم المسؤولين الأوّلين والرئيسيّين عن التربية. إن دور الأهل في التربية هو من الأهمية بمكان بحيث يكاد يكون متعذّراً توفير بديل ملائم لهم. لذلك واجب الأهل هو أن يخلقوا جوّاً عائلياً يسوده الحبّ والإخلاص لله وللناس من حولهم، الأمر الذي يعزّز تربية شخصية اجتماعية متكاملة لأولادهم. العائلة، إذاً، هي المدرسة الرئيسيّة التي يتعلّم فيها الأولاد الفضائل الاجتماعيّة الضرورية لكل مجتمع.

قديماً كان يُفترض بالعرّابين أن يأخذوا على عاتقهم تربية الأولاد الذين يعمّدونهم ولكن فقط في حال قُتِل كلا الأبوين (كما في حقبة اضطهاد نيرون للمسيحيّين). لم يكن القصد أبداً أن يصادروا ما هو بالدرجة الأولى مسؤولية الأهل أي حضانة الأولاد في المسيح. كل الأهل عرّابون لأولادهم. هم الكهنة والوعّاظ الأوائل. والعظات التي يلقونها لا تمّحي آثارها.

عاملهم أفضل مما يستحقّون

جيء بمراهق إلى القاضي ليحكم عليه في جريمة ارتكبها. فلاحظ القاضي لدى الشاب صفات عديدة طيّبة فتحدّث إليه على انفراد. "قل لي، يا بنيّ، لماذا فعلت ذلك؟" فأجاب: "أظن أنّي فعلت ما كان الناس يتوقّعونه منّي".

إنّ هذه هي إحدى أهم الوقائع في الحياة أنّ الناس يصيرون على صورة ما نتوقّعه منهم. قال غوتيه مرّة: "عامل الإنسان كما هو فيبقى كما هو. عامله بصورة أفضل مما هو فيصير أفضل".

لقد بيّنت الاختبارات أنّه عندما يعامل الناس الشبّان وكأنّهم راشدون فإن علامات الرشد تظهر عليهم.

منذ سنوات قال رجل في معرض محاكمته: "كان أبي يقول دائماً إنّه ليس فيّ شيء صالح. وكانت أمّي تقول إنّي لن أُحصّل شيئاً في حياتي. وأستاذ المدرسة كان يقول إنّي لا أنفع. حتى أهل بلدتي كانوا يقولون إنّي سوف أصير مجرماً. وكنت دائماً أتساءل لماذا. كنت مثل غيري من الأولاد ولكنْ متحرّراً بعض الشيء. المخلوق الوحيد الذي بدا كأنّه يؤمن بي كان كلبي. وقد مات كلبي فصرت أنا منبوذاً".

يسلكون وفق ما نتوقّعه منهم

أعط الصبي اسماً سيّئاً فيسلك وفقاً لاسمه.

من جهة أخرى، عندما يُبدي شخص ما اهتماماً صادقاً بنا، متى عرفنا أنّ هناك مَن يؤمن ويثق بنا فإنّ شيئاً ما من داخلنا يستجيب. إذ ذاك نصير أكثر احتراماً لأنفسنا. نسعى لأن نكون في مستوى الثقة والأمانة التي يولينا إيّاها الآخرون. هذا ما يعنيه أن يكون المرء محبوباً. متى أحبّنا أحد فكأنّه يمسك بإكليل ويجعله فوق رؤوسنا، ومن هناك فصاعداً علينا أن نحاول أن ننمّي قامتنا إلى علو يسمح لنا بأن يستقرّ الإكليل على رأسنا. اليزابيت فرغسون فون هيسّي كتبت تقول: "أحبّك لا فقط من أجل ما أنت عليه بل من أجل ما أنا عليه عندما أكون معك. أحبّك لا فقط من أجل ما صنعت من نفسك بل من أجل ما تصنعه منّي... أحبّك من أجل تجاهلك إمكانات الغباء فيّ وتثبيتك إمكانات الصلاح".

ليس ما يوازي ج. ب. بريستلي في فهمه لعلم نفس المرأة: "لم تكن جميلة لكنْ كان بإمكانها أن تكون وسيمة لو اتّفق أن ردّد عليها أحدهم القول إنّها جميلة".

دوروثي سارنوف وهي مُنْشِئةُ تِقَنيّةِ "ديناميات الكلام" قالت إنّها في عمر السابعة كانت تعتبر نفسها أبشع ولد في الجوار. وكانت خجولة على نحو مؤلم. ولحسن التدبير كان بإمكان إحدى المعلّمات أن تساعدها: "لقيت تقول لي إنّ بإمكاني أن أعمل كذا وكذا. ولأنّها قالت لي إنّي قادرة فعلتُ كما قالت".

عامل الإنسان بأفضل مما هو فيتحسّن. نحن نعامل كلابنا وكأنّهم بشر، لهذا السبب يصيرون كأنّهم بشر. الأم تعلّم طفلها الكلام إذ تكلّمه وكأنّه يفهم ما تقول قبل أن يبدأ بالفهم بوقت طويل. لهذا السبب، الأعلى دائماً ما يرفع الأدنى إلى فوق.

أُسند للصف الرابع، في إحدى المدارس، لأحد المعلّمين وقيل له

إنّ كل الأولاد في الصف يتمتّعون بذكاء فائق. عملياً كانوا كلّهم متوسّطي الذكاء. لكن اشتغل المعلّم معهم على أساس أنّهم ذوو ذكاء فائق. فكانت النتيجة أنّ مستوى ذكاء الصف ارتفع بشكل غير اعتيادي.

لما كتب القدّيس بولس رسالته إلى مسيحيي كورنثوس أبدى ثقة عظيمة بهم: "لي ثقة كبيرة بكم. لي افتخار كثير من جهتكم. قد امتلأت تعزية" (٢ كو ٧: ٤). "أفرح أنّي أثق بكم في كل شيء" (٢ كو ٧: ١٦).

المديح عندما يُعرَض بصدق له قوّة على التغيير تكاد تكون سحرية. إذا رغبت في أن ترى شخصاً يتقدّم نحو النضج الكامل فهنّئه لما أنجز، ولكن افعل ذلك بصدق وأمانة.

"عامل إنساناً كما هو فيبقى كما هو. عامله وكأنّه أفضل مما هو فيصير أفضل".

موقف يسوع

هذا موقف يسوع من يهوذا الإسخريوطي. كان المعلّم عارفاً تماماً بأنّ هناك خائناً في صفوفه. لكنّه حاول أن يبيّن ليهوذا أنّه يثق به. لم يعامله كخائن بل كصديق. حتى إنّه جعله حافظاً لصندوق الجماعة. كان كأنّه يقول له: "يا يهوذا، أنا بحاجة إليك. أريدك أن تخدم كحافظ للصندوق. لي ثقة بك". الفداء أخفق مع يهوذا لكنْ بقي أنّ أفضل طريقة لإصلاح مَن كان شارداً ليست أن نعامله وكأنّه مشبوه بل بثقة، لا كأننا نتوقّع منه الأسوأ بل الأفضل.

من أين تأتي انطباعاتنا عن أنفسنا؟ بصورة أوليّة من أهلنا ومن صور ذوينا. الطريقة التي يعاملوننا بها عندما نكون أطفالاً تجعلنا نكوّن

آراء قويّة بشأن ما نحن عليه وما يمكن لنا أن نتوقّعه من أنفسنا. هذه الآراء هي على أقوى ما تكون في عقلنا اللاواعي، في داخلنا عميقاً حيث لا يسعك أن تراها بوضوح أكثر الأوقات.

إذا عاملَنا ذوونا وكأننا بخير فإننا نصدّق أننا بخير. وإذا عاملونا وكأننا نزقون فإننا نعتبر من تحصيل الحاصل أن لا أحد قادر على ضبطنا، حتى ولا نحن أنفسنا. أكثر الناس الذين يتخطّون الحدود وتتكوّن لديهم عادات غير منضبطة كالتدخين وإدمان الكحول وتعاطي المخدّرات هم الذي يحسبون، بصورة لا واعية، أنّهم غير قابلين للضبط وعليهم أن يعزّزوا هذه الفكرة – لأن ما تظنّه في نفسك، خيراً كان أم شرّاً، تعمل كل ما في وسعك، بصورة آلية، على إثباته.

كم هو مهم أن نعامل أولادنا باعتبارهم أفضل مما هم لكي نلجم ما هو سيّء فيهم ونعزّز ما هو صالح.

الطريقة التي يعاملنا بها الله

تكلّمنا على أهمية أن نعامل الناس، لا سيما أولادنا، باعتبارهم أفضل مما هم، لكي نتحدّاهم ليصيروا أفضل. لكننا لم نتكلّم بعد على القسم الأهم من هذه الحقيقة وهو أنّ هذه هي تماماً الطريقة التي يعاملنا الله بها. فهو ينظر إلى الخطأة ويرى طاقة قدّيسين. ينظر إلى شاول المضطهِد فيرى بولس الرسول. ينظر إلى بطرس صيّاد السمك المتقلِّب فيرى بطرس الصخرة. ينظر إلى زكّا العشّار المخادع فيرى زكّا صاحب الشعور الإنساني بالرأفة. "لما كنّا بعد خطأة أرسل الله ابنه ليموت عنّا". الله مؤمن بنا. يؤمن بنا لدرجة أنّه أرسل ابنه ليموت من أجلنا. أعطانا وصايا وتحدّيات ذات علو شاهق لأنّه مؤمن بأنّ الناس، بنعمته وقوّته، بإمكانهم أن

يَسْمُوا ليصيروا "شركاء في الطبيعة الإلهية" (القدّيس بطرس). عندما يقبل الله الخاطئ عائداً إليه يعامله لا كمجرم بل كضيف كريم. عاين كيف استقبل الأبُ الابن الشاطر عائداً إليه. لم يعامله كأنّه لا يمكنه أن يثق به بعد اليوم، بل رحّب به كابن وأعلن العودة عيداً واحتفالاً.

أمثلة

علينا أن نعامل الآخرين كما يعاملنا الله.

سمعت كاهناً يعمل مع الصِبية يقول مرّة إنّ الأولاد الجانحين يتصرّفون كخراف سوداء لأنّ كل أحد يتوقّع منهم أن يكونوا خرافاً سوداء. هو نفسه عاملهم كخراف بيضاء فصار أكثرهم – كما قال – خرافاً بيضاء.

"فلويد ستار" اعتاد أن يدير مدرسة للصبية الذين كانوا يعانون من متاعب والقانون. كان مقتنعاً أنه ليس هناك ما يمكن اعتباره "صبياً شريراً". إذا تصرّف صبي بطريقة سيّئة فلأنّه عومل بطريقة سيّئة في وقت من الأوقات، من قِبَل أهله أو لظروف حياته.

وقد أخبر فلويد أنّه دخل بسيّارته، مرّة، إلى البلدة مع أحد هؤلاء الصِبية النكرين، المعتزلين الذين يصعب الامتداد صوبهم. وما إن وصلوا إلى حيث كانوا ذاهبين حتى أخذ فلويد ورقة نقدية قيمتها عشر دولارات من جيبه ودفعها إلى الشاب الصغير قائلاً: "سوف أكون مشغولاً لمدة تقرب من الساعة". "اذهب تناول طعام الغذاء ورُدَّ لي الباقي. وخذ مفاتيح السيّارة في حال احتجت إليها".

تطلّع إليه الصبي غير مصدّق. "أنسيت السبب الذي من أجله جرى توقيفي، يا سيّد ستار؟ سرقة السيّارات!"

"أعرف، ولكن كل ذلك صار من الماضي الآن. أنا أؤمن بك. لي ثقة بك".

امتلأت عينا الصبي دموعاً وهتف بانكسار: "لماذا لم يقل لي أبي أو أمّي ذلك ولا مرّة واحدة؟"

الأب يعرف أكثر

في يوم عطلة تطوّع أب ليلازم البيت ويتيح لزوجته أن تزور صديقاتها. خلال غيابها اهتمّ بثلاثة أولاد، لكنّه عُني بتسجيل كل ما فعله لأولاده على قصاصة ورق. خلاصة يومه كانت على الوجه التالي:

- إجابات على أسئلة تبدأ بـــ "لماذا؟" : ٢٥ مرّة
- سحب عود الكرامل الدبق من شعر جونيور : ٣ مرّات
- تنشيف دموع : ٩ مرّات
- تغيير حفاضات : ١٥ مرّة
- تنظيف مجرى التنفّس من البلغم : ١١ مرّة
- رد على رن جرس الباب : ٤ مرّات – الخبّاز، صاحب محل السمانة، بائع الحليب والولد الذي يأتي بالجرائد. كلّهم قال إنّه يفضّل أن يعود متى عدتِ إلى البيت.
- محاولات إبخال ملعقة الطعام في فم الطفل : ١٨ مرّة. نجح مرّتين.
- ربط شريط حذاء : ١٣ مرّة
- الطلب إلى الأولاد بصوت لطيف أن يلتزموا الهدوء : مرّة واحدة
- الطلب من الأولاد أن يكفّوا عن الزعيق : ١٨ مرّة
- تنبيه الأولاد ألاّ يجتازوا الشارع : ١٦ مرّة

- ملاحظة الأولاد وهم يجتازون الشارع : ٣٢ مرّة
- سألني الأولاد ١٠ مرّات : "متى تعود الماما إلى البيت؟" طرحت على نفسي السؤال عينه مرّة كل أربع دقائق.
- عدد المرّات التي سوف يبقى فيها البابا مع الأولاد ثانية : ولا مرّة!

الآباء الغائبون

نعمل كالعبيد ونعرق لنشتري ونعتني بأمتار قليلة من الملْكية أو لندير عملاً تجارياً نافعاً أو لنتقدّم ولو قليلاً في هذا العالم. نتهالك في سعي مجنون على متْع أرضية. نندفع بعنف من مكان إلى آخر على أهبة الاستعداد للتحرّك دائماً إلى الأمام. كل ذلك فيما أثمن كنز بين أيدينا لا يعني لنا إلاّ قليلاً: أولادنا! طبعاً نؤمّن لهم ما يحتاجون إليه. نطعمهم ونلبسهم ونسكنهم ونؤمّن لهم دروس الموسيقى والألعاب الغالية الثمن والمصروف الأسبوعي. لكننا لا نعطيهم أهم شيء يحتاجون إليه: أنفسنا! جرى مَسْحٌ منذ بعض الوقت طال ثلاثمائة من أولاد الصف السابع والثامن. الغرض كان معرفة كم من الوقت يُمضي الآباء والبنون معاً. سجّل كل ولد بدقّة الوقت الذي يقضيه مع أبيه. الأولاد الذي رأوا والدهم إلى طاولة الطعام شكّل القسم الأكبر من المجموعة. هناك عدد من الأولاد لا يعاينون آباءهم لأيام متتابعة وبعضهم لأسابيع. معدّل الوقت الذي للأب مع ابنه على انفراد لمدّة أسبوع كامل كان سبع دقائق ونصف الدقيقة. فلا عَجب إذا كتب ت. س. أليوت يقول: "تنشئ أولاداً لا نعرفهم ومن تراء يعرفنا البتّة".

إن إحدى أهم مشكلات العائلة الأميركية اليوم هي مشكلة الآباء

الغائبين. كل طفل بحاجة إلى راشد من جنسه ليرشده ويكون له نموذجاً في النضوج. هذا هو دور الآباء. لكن يبدو أنّ الآباء مأخوذون باهتمامات إدارة العمل والمهنة لدرجة أنّهم غير قادرين على إدارة بيوتهم. فلقد فقدوا اللمسة التنفيذية الأكثر أهمية التي هي في بيوتهم. كم من مرّة نجد رجالاً كعالي في العهد القديم. هذا كان كاهناً ممتازاً لكنّه كان أباً فاشلاً. كان يجد وقتاً لكل شيء إلاّ لأولاده.

عندما عُرضت على أحد القضاة حالة أحد الصبية في عمر الخامسة عشرة وقد عانى من بعض المتاعب أصدر حكماً غير عادي ولكنْ مناسباً تماماً. حكم على الأب بأن يتناول طعام العشاء في البيت مدّة ثلاثين يوماً!

ذات مساء عاد أب إلى بيته منشغل البال لأنه أخفق في عمله المهني. "فعربشت" ابنته الصغيرة على ركبته واحتضنته قائلة: "لا تسعَ لأن تغتني من جديد يا أبي. لم تأتِ إلى الحضانة عندما كنتَ غنياً لكنْ بإمكاننا، الآن، أن نحيط بك ونصل إلى ركبتك ونقبّلك".

إمكان الوصول

تكمن أهمية قضاء الأب وقتاً مع أولاده أنّ الوصول إليه، بالنسبة لأولاده، يصير ممكناً. وإذا أمكن الوصول إلى البابا فإنّ الأولاد يرغبون في أن يأتوا إليه بمشاكلهم. الإبنة تتعلّم مواقفها الأولى من الرجال من أبيها. حتى الابن يتأثّر، في التعامل الحسن مع الآخرين، بكيفيّة التعامل الطيّب مع أبيه. الراشدون الذين لا ينسجمون مع الناس بإمكانهم أن يعيدوا مشكلتهم إلى علاقتهم الضعيفة بذويهم. إذ يتعلّم الولد التواصل الحسن مع أهله يتواصل بشكل طيّب أيضاً مع الآخرين. ولكن كيف يمكن للأولاد أن

يتعلّموا كل هذه الأمور من أبيهم إذا لم يكن بإمكانهم الوصول إليه، إذا كان منشغلاً دائماً ولا وقت يصرفه مع أولاده؟

حتى الأمّهات، أحياناً، يملن إلى فصل الأب عن الأولاد. مثلاً يأتي الأب إلى البيت تَعِباً مرهَـقاً من عمل اليوم. تحاول زوجته أن تصرف الأولاد عنه كلّما حاولوا الاتصال به: "البابا تعب جداً. علينا أن نتركه بسلام". على هذا النحو تساهم الأمّهات في تعطيل خطوط الاتصال بين الأب والأولاد إلى أن يصير إمكان الوصول إليه غير وارد.

أحد الصبية كتب، مرّة، في مفكّرته هذه الملاحظة: "خرجت إلى صيد السمك مع أبي – هذا كان يوماً مجيداً في حياتي". تأثير هذا اليوم، في حياة الصبي، كان من الأهمية بحيث إنّه على مدى ثلاثين سنة، بعد ذلك، استمرّ يشير في مفكّرته إلى ما فعله في ذلك اليوم. أمّا الوالد فكانت ملاحظته في مفكّرته بشأن اليوم عينه والحادثة عينها: "ذهبت إلى صيد السمك مع ابني. ذاك كان يوماً ضائعاً!".

التشجيع

النصيحة التالية للآباء هي من القدّيس بولس، فلقد كتب إلى أهل أفسس يقول لهم: "أيّها الآباء، لا تغيظوا أولادكم بل ربّوهم بتأديب الربّ وإنذاره" (٦: ٤). أحياناً يكون الأب عابساً وصارماً لدرجة يشعر معها الأولاد بعدم الارتياح في حضوره. وعندما يغادر المنزل يتنفّسون الصعداء. أية صورة لنا كآباء؟ هل يشعر أولادنا بالفرح عندما نكون في البيت؟ هل يفتقدوننا عندما نذهب أم يشعرون بالارتياح؟

أحد الآباء كان ينتقد ابنه باستمرار لأخطائه. هذا وقف بقرب سريره، ذات ليلة، وملؤه شعور بالأسى ثم كتب الاعتراف البارز التالي:

"إسمع، يا بنيّ: أقول هذا وأنت نائم... هذه هي الأمور التي كنت أفكّر فيها. لقد كنتُ لك صليباً. عنّفتك إذ كنتَ تلبس ثيابك وتستعد للذهاب إلى المدرسة لأنّك مسحت وجهك بالمنشفة بخفّة... صرختُ في وجهك بغضب لأنك ألقيتَ بأغراضك أرضاً..."

"وقت الترويقة وجدتُ فيك عيباً أيضاً. أرقتَ ما أمسكتَ به. ازدردت (زلطت) الطعام. جعلتَ كوعيك على الطاولة. مرغتَ الزبدة على خبزتك بكثافة. ولما شرعتَ في اللعب وأنا في العمل استدرتَ ولوّحتَ بيدك وقلت لي: "إلى اللقاء يا بابا" وأنا عبستُ وأجبتك قائلاً: شدّ كتفيك إلى الخلف!"

"ثم عادت الأمور وتكرّرت في فترة ما بعد الظهر. إذ كنتُ مقبلاً على الطريق تجسّست عليك فوجدتك على ركبتيك تلعب بـــ "الكلل". كانت هناك ثقوب في كلساتك. أهنتك أمام أصحابك بجعلك تمشي أمامي إلى البيت. الجوارب غالية الثمن، ولو كان عليك أن تدفع ثمنها بنفسك لكنت أكثر حذراً! تصوّر هذا الأمر، يا بنيّ، صادراً عن أبيك!..."

"ماذا أقول، يا بنيّ! بعد ذلك بفترة قصيرة زلقت الجريدة من يدي واستبدّ بي شعور سقيم مرعب. ماذا فعلتُ العادة، عادةُ البحث عن الخطأ فيك، عادةُ توبيخك؟ هل هذه هي مكافأتي لك لأنك صبي؟ ليس أنني لم أكن أحبّك بل توقّعتُ منك أكثر مما ينبغي. كنت أقيسك بمقياس سني حياتي".

وختم الكاتب اعترافه بهذه الكلمات: "لكنّي غداً سوف أكون لك أباً حقيقياً. سوف نقضي أوقاتاً طيّبة سويّة. سوف أتألّم حين تتألّم. سوف أضحك عندما تضحك. سوف أعضّ لساني متى حاولتْ كلمات غير صبورة أن تخرج من فمي. سوف أردّد باستمرار: "ليس سوى ولد – ولد صغير – وأنا طلبت منك أكثر بكثير مما ينبغي".

كم هو مهم أن نتذكّر أن عمل الله لم ينتهِ مع أحد منا بعد ولا زال يعمل فينا.

التوقير

منذ سنوات قرّر قاض في نيويورك أن يزور المنطقة الريفية التي يُعتبر مستوى جنوح الفتية فيها الأدنى في العالم ليرى إذا كان بإمكانه أن يعرف سبب ذلك. وهذا ما وجده:

"الشبّان والشابات في هذه المنطقة يحترمون السلطة... وجدت أنّه حتى في أفقر بيوت العمّال تحترم الزوجة والأولاد الأبَ باعتباره رأس العائلة. كان قائد ذلك العائلة وساس قطيعه بدرجات متفاوتة من المحبّة والرفق والصرامة. كانت لأهل بيته قواعد يسلكون فيها والطفل الذي يعصى كان يُعاقَب". على هذا صرّح هذا القاضي أنّ أحد العلاجات الرئيسيّة للجنوح هو: "إعادة الأب رأساً للعائلة".

الكتاب المقدّس يعلّم الشيء نفسه. في الحقيقة، كل الفكرة تأتي من هناك. في الرسالة إلى أهل أفسس (٥: ٢٢): "أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للربّ لأنّ الرجل رأس المرأة كما أنّ المسيح هو رأس الكنيسة". هذا ما رسمه الله للبيت المنتظم. هذا معناه أن للأب سلطة من الله نفسه. عليه أن يمثّل الله في العائلة. هذه ليست فكرة الإنسان بل فكر الله. الله عيّنه رأساً للعائلة ويتوقّع منه أن يتمّم فرضه بطريقة تعكس، بصورة شريفة، أبوّة الله بالرغم من كل محدودية الطبيعة البشريّة.

طبعاً، هذا يتضمّن أن يكون الآباء مستحقّين لهذا التوقير. للأسف العديد منهم لا يستحقّون. إنها غلطتهم أنّهم فقدوا السيطرة على أُسَرِهم. انهيار السلطة في البيوت اليوم عائد أولاً لا إلى إخفاق الأولاد في توقير

آبائهم بل بالأحرى إلى إخفاق الآباء في فرض هذا التوقير.

منذ بعض الوقت كان هناك برنامج تلفزيوني شعبي بعنوان "الأب يعرف أكثر". وفي هذا البرنامج كان الأب دائماً ما يعرف أكثر لأنّ الأمور قابلة للترتيب على هذا النحو في التلفزيون. كل شيء ينتهي، في النهاية، نهاية حسنة بحيث يبدو الأب صالحاً. ولكنْ متى يكون الأب أكثر معرفة من سواه؟

يعرف أكثر من سواه عندما يقضي بعض الوقت مع أولاده ويتحدّث إليهم ويشجّعهم ويجعل نفسه في متناولهم بحيث يشعرون بأنّهم قادرون على أن يأتوا إليه بمشكلاتهم. الأب يعرف أكثر من سواه حين لا يكون صارماً بإفراط مع أولاده، حين يفهم أخطاءهم دون أن يتغاضى عنها، حين يؤدّبهم ولكنْ يحبّهم بالأكثر. الأب يعرف أكثر من سواه عندما يجعل المسيح في المقام الأول في البيت ولا يدع الأولاد يؤدّون كل الصلاة وقت العشاء بل يحرص على أن يقود العائلة في الصلاة باعتباره رأس البيت. الأب يعرف أكثر من سواه عندما يقبل بتواضع مكان الكرامة الذي أسنده إليه الله في العائلة، عندما يمثّل الله بالنسبة لأولاده ويعطيهم صورة صحيحة عن الله وهي صورة تجعلهم يحبّون الله ويطيعونه باعتباره أبيهم السماوي.

ماذا فعل أحد الآباء؟

أحد الآباء، وكان رجل إدارة كثير المشاغل مضطراً أحياناً للعمل حتى مساءً، أسف لأنّه لم يكن في وسعه أن يقوم بالمزيد من الأعمال مع ابنيه الفتيَّين. ففي عيد الميلاد قرّر أن يقدّم لولديه هديّة خاصة: أن يفرّغ لهما بعض وقته. فأعطى كلاً منهما دفتر بطاقات بشكل كوبونات قابلة

للصرف كل يوم أحد بعد الظهر. أحد هذه البطاقات ورد فيه ما يلي: "صالح للعب بالمونوبولي مرّة واحدة". بطاقة أخرى سُجِّل فيها: "صالح لنزهة طويلة في الغابات"، فيما ورد في بطاقات أخرى: "صالح لصنع شيء مشترك في مشغلي"، "صالح للعبة واحدة بالريشة" وأيضاً "صالح لقراءة قصّة".

فرح الولدان جداً فكانا، كل أسبوع، يتداولان بحرص، في أي من البطاقات يرغبان في صرفها يوم الأحد. أمّا الأب فمع أنّه كان ميّالاً إلى عدم الاستجابة لولديه في حال قاطعاه، وهو يقرأ، بطلب غامض أن يلعب معهما إلاّ أن سروره كان غامراً بصرف الكوبونات.

المكافأة الحقيقية كانت بعد مرور شهرين على ذلك، في يوم فالنتين، إذ امتلأ الولدان حماسة لدى تقديمهما هديّة فالنتين لأبيهما: دفعا إليه دفترين من البطاقات (الكوبونات) المزيّنة، بمحبّة، بقلوب ملوّنة بالأحمر والزهري وفي الكوبونات كتابات كالتالية: "صالح لتلميع الأحذية"، "صالح لغسل السيّارة"، "صالح للمجيء بجريدة الأحد إلى الفراش".

كلا، إذا كان مثلك يا أبي

كان لأحد الكهنة، مرّة، ولد مرض مرضاً خطيراً. فبعد أن أُجريت له سلسلة من الفحوصات الطبّية أُطلِع الأب على خبر صَدَمه وهو أن ابنه يعاني من مرض مميت. صلّى الأب مع ابنه. ثمّ أخبره برفق أنّ الأطبّاء لا يَعِدونه إلاّ بأيام قليلة من الحياة. بعد ذلك سأله: "هل أنت خائف يا بنيّ من لقاء يسوع؟" محاولاً أن يخفي دموعه، فقال الصغير بشجاعة: "كلا، إذا كان مثلك يا أبي!"

جهود الأهل الشاقة

وقف أحد الضبّاط، وكلّه انتباه، في مدرج المطار حيث كان مُلْحقاً. كان قد درّب فريقاً من الشبّان على فنّ الطيران. والآن أحدهم كان يصعد إلى طائرته ليقوم بأوّل رحلة جوّية له منفرداً. كان الضابط مشدود الأعصاب فيما كان الشاب يخرج بالطائرة لينطلق بها في الفضاء. فلما بلغته إشارة برج المراقبة تضاعفت سرعة الطائرة على المهبط ثمّ ارتفعت عن الأرض وطارت بسلاسة إلى الأفق البعيد. إذ ذاك، لأوّل مرّة، شعر الضابط بالارتياح وابتسم قائلاً: "ها هو الآن سيّد نفسه".

كم ينمو أولادنا بسرعة! كم يأتي بسرعة اليوم الذي ينبغي لهم فيه أن يغادرونا، إلى الجامعة، إلى العمل، إلى الزواج، إلى شؤون أخرى تصرفهم عنّا إلى أبعد مما في طاقتنا على متابعتهم، أبعد من حيث بإمكاننا نحن أن نذهب. الآن هم أسياد أنفسهم. الآن عليهم أن يطيروا منفردين. الآن عليهم أن يشقّوا طريقهم الخاص في الحياة، عليهم أن يختاروا أصدقاءهم، عليهم أن يصنعوا قراراتهم بأنفسهم. بإمكاننا أن نفرح معهم وأن نبكي معهم ولكن ليس في وسعنا أن نرافقهم أو نقرّر عنهم.

إعدادهم للاستقلال

نحن نشكو أنّ أولادنا مستقلّون أكثر مما ينبغي. المأساة ليست الاستقلال. المأساة هي أننا لم نُعدّهم للاستقلال. ألقيناهم في العالم غير

مهيّئين للاضطراب والهياج والنزاعات والتجارب التي عليهم أن يواجهوها. لم نُعدّهم للوقت الذي عليهم فيه أن يطيروا منفردين. الصعوبة ليست في استقلالهم بل في عدم استعدادهم. وهذا عائد إلى عدم مراعاة الأهل وإلى انغماسهم في شؤونهم الخاصة.

ما الذي نقوم به نحن، كأهل، اليوم – ماذا بإمكاننا أن نعمل لنُعدّ أولادنا للاستقلال؟

الأمر الأول الذي بإمكاننا القيام به هو أن نفهم الأهمية الهائلة للسنوات المبكّرة في حياة الطفل. إنّها السنوات العشر الأولى من حياة الولد التي بإمكاننا فيها أن نزرع إحساساً بالقِيم، لا فقط بما نعلّمه عن الله بل أيضاً بالكيفيّة التي نحيا فيها. إنّ الدماغ الصغير للطفل هو أشبه بآلة تسجيل وما يسجّله يستحيل محوه فيما بعد. إذا ما شرعنا في بناء حائط وكانت الحجارة في القعر، بقرب الأساسات، ملتوية فمهما كانت الحجارة على السطح مستقيمة فإنّ الحائط سيكون متزعزعاً. كذلك الأمر بالنسبة لخبرات الطفولة. فإنّها تشكّل أساس الحياة. إذا كان الأساس قويماً وأميناً فسيكون الحائط كذلك.

عالمان نفسيان مشهوران، بيك وهافيغهورست كتبا يقولان:

"الاستنتاج العام يبدو لا مفرّ منه وهو أن وجدان الطفل هو النتاج المباشر، ويكاد يكون صورة مباشرة عن الطريقة التي عامله بها الأهل. كما هم إليه كذلك هو للآخرين".

إذا أحبّوه أحبّ الآخرين. إذا كرهوه كره الآخرين. وإذا عاملوه باحترام فسيوقّر نفسه والآخرين أيضاً.

من آداب المائدة إلى طريقة النظرة إلى الحياة، من كرامته إلى

صحّته، من قَسَمِه إلى صلاته، من صدقيته إلى أهليته للثقة سوف يكون للبيت تأثيره في كل ذلك. ما سيحدث له في حياته فيما بعد، من الجريمة التي يرتكبها إلى العلّة العاطفية التي سيرثها، يمكن إعادته، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، إلى تلك السنوات التي لا تمّحي حين كان في راحة أيدي الأهل.

مَن يعلِّم الدين؟

لا يُعَلَّم الدين في الكنيسة أو في مدرسة الأحد حيث يمضي الولد واحداً في المئة من وقته، بل في البيت حيث يصرف ٨٣% من وقته. أحد رؤساء الأساقفة الأرثوذكس قال، مرّة، إنّه لم يتعلّم الدين في معهد اللاهوت بل في البيت بمراقبة أمّه وهي تصلّي كل يوم أمام إيقونة العائلة. كم هم الذين بيننا يستريحون ويتوقّعون أن تعلِّم الكنيسة أولادهم الدين؟ الكنيسة ومدرسة الأحد لا تعلّم الدين، فقط تدعم ما تعلّمه الطفل في البيت.

حاجة الولد إلى مرشد قوي، إلى مثال صالح، إلى مَن يتبعه، إلى مَن يقتدي به، إلى مَن يصنع القواعد، إلى مَن يشتهي الولد أن يسلك في خطاه! أين بإمكانه أن يجد هذا النموذج، هذه القاعدة، هذا المثال؟ هل سيجده في أهله في البيت أم في الشارع أم في بُؤَر الفساد أم على شاشة التلفزيون أم في مكان آخر؟

أصيبت أم شابة بصدمة عندما سمعت ولدها الصغير يكذب. أخذت الطفل على ركبتيها وشرحت له كم هو سيّء أن يكذب. "والآن لن تكذب بعد اليوم، أليس كذلك يا بنيّ؟" فأجابها الولد: "كلا يا أمّي لأنك أقدر منّي على الكذب بكثير".

يستحقّ احترامنا

نريد أن نفتخر بأولادنا. هل بإمكانهم أن يرغبوا في أن يفتخروا بنا؟ نريد أولادنا أن يكرمونا؟ فهل تُرانا نقدّم لهم ما يستحقّ الإكرام؟ نريد أولادنا أن يحترمونا؟ فهل ترانا نعطيهم مثالاً يستحقّ الاحترام؟

صحيح أنّ الزمان تغيّر، لكنّه لا يتغيّر، دائماً، إلى الأفضل. إحدى الأمّهات في ضواحي المدينة قالت مرّة: "لقد تحوّل بيتي إلى محطة تزويد بالوقود. فإنّ ابنيّ وابنتي يكتفون بالمجيء إلى البيت، وقت الطعام، ليتزوّدوا بالمأكولات ثمّ يخرجون من جديد". لكن الأمر لم يكن كذلك في الماضي. منذ فترة غير بعيدة كانت العائلة قريبة من كل شيء. كانت مدرسة لأنّنا في العائلة كنّا نجد، أوّلاً، الكتب التي تشكّل أحكامنا. كانت العائلة هي الكنيسة لأنّ أكثرنا سمع صلواته الأولى في البيت. في المنزل عاينّا البابا والماما يصلّيان أمام إيقونة العائلة. لم تكن العائلة يومها محطة للتزوّد بالوقود. كانت العائلة بيتاً محوره الله. مثل هذا البيت هو البيت الذي قال عنه القدّيس يوحنا الذهبي الفم إنّه يُنتج أبطالاً للمسيح!

احترم كل طفل

أخيراً، علينا نحن، كأهل، لا فقط أن نتوقّع من أولادنا أن يحترمونا بل أن نكرمهم ونحترمهم، نحن أيضاً. الأولاد يستحقّون الاحترام لأنّهم أشخاص. قد يكونون صغاراً وأحياناً غير ناضجين لكنّهم أشخاص ينمون. والطريقة الوحيدة لكي ينموا إلى مرحلة النضج هي إذا كنّا نحن، الأهل، نتيح لهم ونشجّعهم على النمو. علينا أن نعاملهم لا كأشياء بل كأشخاص. عندما نمارس التأديب الأبوي علينا أن نمارسه لخير الأولاد لا

لخير الأهل.

عندما كان يسوع في سن الثانية عشرة، رافق والدته ويوسف إلى أورشليم، ولكن بدل أن يغادر أورشليم معهما بقي في الهيكل يتحدّث إلى اللاهوتيّين. طبيعي أنّ أمّه، إذ لم تدرك أنّ عليه واجباً آخر غير رضاها وتجنّب المتاعب لها، وبّخته بحدّة عندما وجدته. لكن يسوع أجاب بلهجة صارمة: "لماذا كنتما تطلباننني؟ ألم تعلما أنّه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟" في سن الثانية عشرة كان يسوع في معرض فصل نفسه عن أمّه، ليصير مستقلاً ويكتشف نداءه الداخلي. لم يكن نصيبه ما تصوّرته أمّه له بل ما كان الآب السماوي يدعوه لأن يكون إيّاه. ونحن، كأهل وشيوخ، علينا أن نحترم دائما هبة فرادة أولادنا وأن نساعدهم على النمو لا إلى ما نريدهم أن يكونوا بل إلى ما جهّزهم الربّ الإله به.

هل سبق لكم أن رأيتم زورقاً قاطراً يدفع باخرة عملاقة من مرساها على رصيف الميناء فإلى المحيط؟ ألسنا نحن الأهل، مثل هذه الزوارق القاطرة عندما نوجّه نموّ أولادنا؟ إذا كنّا نعمل دائماً فإننا ندفع قليلاً من هنا ونشدّ قليلاً من هناك قاطراتنا الأبويّة! على هذا النحو، بإرشاد الله نوجّه دفّة أولادنا نحو محيط الحياة. وما إن يصيروا إلى هناك حتى نصلّي واثقين أنّهم مهيّأون للانطلاق من ميناء البيت إلى مسارهم الخاص حقاً!

إحدى الأمّهات قالت بشأن ابنها الشاب الصغير مرّة: "أنا أدرك أنّه ليس في وسعي أن أذهب معه إلى حيثما يذهب، لذلك أبنيه من الداخل".

أتسمعني

"ليس والدي من النوع الذي يجلس ويسمع بل يجلس ويخبرني ما هي عليه الأمور". نادراً ما نناقش أمراً مهماً في البيت. كنّا، في الماضي، نتجاذب أطراف الحديث وقت المائدة أمّا الآن فلسنا بعد نفعل ذلك. فإنّ والدي اشترى تلفزيوناً نقّالاً وهو يجعله في غرفة المائدة". "لا أستطيع أن أطرح على أمّي أسئلة تتعلّق بالجنس لأنّها للحال تردّ عليّ بعنف: "لماذا تريدين أن تعرفي ذلك؟"

إذا كنّا نحن الراشدين نرغب في تحسين وضع الشباب اليوم فخير مكان نبدأ فيه ذلك هو بيوتنا. الطريقة الفضلى للمباشرة بذلك هي تشجيع الشباب على الكلام بحرّية في شأن المشكلات التي تواجههم. علينا أن نتعلّم الإصغاء وكذلك إعطاء النصيحة والأوامر.

إذا كنّا نتوقّع أن يصغي الشباب إلينا فلعلّنا نبيّن لهم كيفيّة ذلك بالإصغاء إليهم.

منذ سبعين سنة مضت وقع أحد أهم الأحداث في عالم علم النفس. فإنّ طبيباً قام بعمل جديد من نوعه. عالج فتاة شابة ذكيّة تعاني اضطراباً هيستيرياً بمجرد الإصغاء إليها مئات من الساعات. فإنّها سكبت نفسها،

أخيراً، واكتشف الطبيب القيمة العلاجية العظيمة للإصغاء، الأمر الذي صار اليوم إحدى التقنيّات الأساسية لعلم التحليل النفسي.

أن تسمع الصراخ غير المحكي

الإصغاء الجيّد يتطلّب أن يكون المرء حسّاساً لحاجات الآخرين. ولا طاقة لنا على أن نكون حسّاسين ما لم تثبت حياتنا في محبّة الربّ يسوع. كم كانت حسّاسة أذنا الربّ يسوع! كان بإمكانه أن يسمع الصراخ غير المحكي للناس المحتاجين. انعطافه على الناس كان سريعاً وسمعه حاداً بحيث كان يعي الحاجة البشريّة فيما لم يكن الآخرون من حوله يسمعون شيئاً.

تصوّر أمّاً نائمة والطفل بين ذراعيها. تدقّ ساعة الحائط بصوت عال فتبقى نائمة. تهدر سيارات الأوتوبيس وهي تمرّ بقرب النافذة فتبقى نائمة. يُضرَب على الباب ويرتفع الضجيج في المطبخ وينادي بائع الحليب والكلاب تنبح، ومع ذلك تبقى نائمة. ولا يرفّ لها جفن. ولكنْ إذا ما حرّك الطفل يده أو رجله وهو نائم أو صدر منه صدى صرخة، للحال تصحو الأمّ من نومها. ما الذي يجعل الأمّ حسّاسة لصراخ ولدها؟ ماذا غير الحبّ؟!

المسيحي الذي يملك عليه حبّه للمسيح يصير حسّاساً. يصير على موجة الناس بحيث يمكنه أن يلتقط نبراتٍ ذات معنى في أحاديث كثيرة. تراه حسّاساً لصرخات الاستغاثة والفهم والقبول والحبّ ويستجيب بما يلائم.

لنتّخذ لنا مثلاً. وصل شاب صغير في المدرسة الثانوية إلى البيت في ليلة من ليالي السبت، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فدخل إلى

غرفة نوم والديه وقال لهما: "يا أمّي ويا أبي، أريد أن أتحدّث إليكما. لست بحاجة إلى نصيحة. فقط أصغيا إليّ". تكلّم على مدى ساعة ونصف الساعة عن المدرسة وعن اهتماماته الأخلاقية وعن أصحابه وأهله وعن معتقداته الدينية. لم يقل أبوه وأمّه شيئاً. فقط أصغيا. ثمّ فجأة انتصب واقفاً وقال: "شكراً لإصغائكما. قد لا أُكلّمكما بمثل هذه الطريقة ثانية لمدّة سنة". قال هذا وانصرف إلى فراشه.

تصوّر الضرر الذي كان بإمكان هذين الوالدين أن يُحدثاه لو لم يكونا حسّاسَين لحاجات ولدهما وقالا: "انظر يا هذا، إنّها الساعة الواحدة صباحاً. ألا ترى أننا نصف نائمين. ثمّ كيف تجرؤ على الدخول إلى هنا وإزعاجنا. كلّمنا عمّا تريد غداً عندما نكون صاحين".

أصغِ بعينيك

دخلت فتاة صغيرة المطبخ وهي تتمايل حيث كانت أمّها منشغلة بإعداد طعام العشاء. "احزري يا أمّاه!". "لا أعرف – ماذا؟" قالت الأمّ ذلك وعيناها على البطاطا التي كانت تقشّرها.

"أمّي، أنت لا تصغين إليّ"

"بل أصغي إليك يا عزيزتي". قالت ذلك وهي تدفع بقشر البطاطا في سلّة المهملات.

"لكنك يا أمّي لا تصغين إليّ بعينيك".

الإصغاء عمل متعب. فإنّه يحتاج إلى حضور الشخص بكليّته، لا إلى أذنيه فقط بل إلى عينيه وعقله وقلبه أيضاً. نحن نصغي لا فقط إلى الأوتار الصوتية وما تنبئنا به ولكن أيضاً إلى كل ما يقوله الشخص الآخر بجسده كلّه.

"تذكّرا عندما كنت في السابعة..."

دعني أشركك في جزء من رسالة أثّرتْ فيّ بعمق. كتبها صبي له سجل فتى جانح. وجّهها إلى والديه اللذين بعثا بها إلى جريدة في كانزاس سيتي مرفقة بملاحظة تقول: "لعلّنا إذا اشتركنا في هذه الرسالة، من خلال صحيفتكم، مع آخرين نساعد سوانا من الأهالي"

"والداي العزيزان

"شكراً لكما على كل شيء، لكنّي ذاهب إلى شيكاغو لأحاول أن أبدأ حياة جديدة.

"سألتماني لماذا فعلت كل تلك الأشياء ولماذا سبّبتُ لكما متاعب جمّة، والجواب سهل عليّ، لكنّي أتساءل ما إذا كنتما ستفهمان.

"تذكّرا عندما كنت في حوالي السادسة أو السابعة واعتدت أن أرغب إليكما بالإصغاء إليّ؟ لا زلت أذكر كل الأشياء اللطيفة التي أعطيتماني لعيد الميلاد ولعيد ميلادي وكنت، بالفعل، سعيداً بما حصلت عليه ولكن لمدة أسبوع تقريباً، أمّا بقية الوقت فكنت أريد منكما أن تصغيا إليّ. لكنكما قلتما إنّكما مشغولان.

"أمّي، أنت طبّاخة ممتازة وكنتِ تحفظين كل شيء نظيفاً وتتعبين كثيراً من القيام بشتّى المهام التي كانت تشغلك دائماً. ولكن، أتعلمين يا أمّي؟ كان بودّي أن أكتفي بالبسكويت وزبدة الفستق لو كنتِ لتجلسي إليّ لبعض الوقت خلال النهار وتقولي لي: "حدثني عمّا يشغل بالك لعلّي أتمكّن من جعلك تفهم"...

"أظنّ أنّ كل الأولاد الذين يقومون بتلك الأعمال الشائنة التي

تجعل الكبار ينتفون شعرهم قلقاً إنما يبحثون في الحقيقة عمّن لديه وقت ليصغي إليهم دقائق قليلة...

"إذا سألكما أحد أين أنا فقولا له إنّي ذهبت لأبحث عمّن لديه وقت لأنّ عندي الكثير أودّ أن أتحدّث عنه.

محبّتي للجميع

ابنكما"

كل الناس يفعلون ذلك

منذ بعض الوقت سمعت شخصاً يقول: "ألا تظنّ أنّه، في أغلب الأحيان، حين يتعاطى الناس المخدّرات أو الكحول أو يتورّطون في مشكلات جنسيّة فإنّ ذلك لأنّهم يتبعون الجمهور الكبير ويتبنّون مقاييس الفئات الدنيا حولهم بدل أن يتمسّكوا بمعاييرهم الخاصة السامية، معايير المسيح؟"

لا شك في أنّ هناك ضغوطاً حقيقية تدفع الناس إلى هذا النوع من المطابقة. أحد معلمي الصف التاسع في مدرسة الأحد قال:

"تناول الصف التاسع في مدرسة الأحد درس "المطابقة" أو تكيّف المرء مع أفكار الآخرين، وكنّا نتحدّث عن مقدار ما هو ضروري للشبّان ألاّ يكونوا مختلفين عن سواهم. فإذا أُخرجتْ الأحذية المطاطية الخفيفة التي تُلبس فوق الأحذية العادية لحمايتها فإنّ أي مراهق يفضّل أن يصل إلى المدرسة وكلّه مبلّل حتى إلى وسطه والجليد يتدلّى على أطراف معطفه من أن يظهر وهو لابس جزمة واقية!

"تلاميذ الصف التاسع سلّموا بكل هذا بسرور. لكنّهم فوجئوا عندما طرحت عليهم السؤال التالي: "ولكن إذا كانت واحدة منكن، أيّتها الفتيات، تسير في رواق المدرسة وهي لابسة ثوباً جديداً فالتقت فجأة بفتاة

أخرى تلبس ثوباً كثوبها تماماً فلماذا تضطرب اضطراباً شديداً؟

"فقهقهت الفتيات شاعرات بالذنب وابتسم الفتيان بتكلّف.

"ثمّ قالت إحدى الفتيات: "هذا لأننا لا نرغب في أن نكون تماماً كأي فتاة أخرى!"

"وأضافت فتاة أخرى: أظنّ أننا نريد أن نكون متشابهات ولكن مختلفات في آن معاً!"

ليس المراهقون وحدهم هم الذين يريدون أن يشبهوا الآخرين وأن يختلفوا عنهم أيضاً. كلّنا يريد ذلك لأننا بحاجة للشعور بالأمان. إحدى الطرق التي بها نتمتّع بهذا الشعور هي أن نكون مطابقين للآخرين، أن نكون مثلهم لنشعر بأننا جزء من الجنس البشري. ولكن إذا وجدنا أنفسنا، نظير الفتاتين اللتين تلبسان الثوب عينه، وكأننا مثلهم أكثر مما نتطابق مع غيرهم فإنّ هذا يزعجنا. نشعر بالسأم والمهانة. نبحث عن شيء جديد.

نحن نماذج أصلية ولسنا نسخاً

لقد جعل الله كلاً منّا مختلفاً عن سواه. من بين مليارات الناس في هذا العالم، ليس هناك اثنان لهما بصمات الأصابع واحدة أو الشخصية عينها. ولكن بدل أن نفرح بفرادتنا كثيراً ما نقرّر أنّ علينا أن نكون نظير الجميع في الفريق. نأخذ هبة الفرادة الإلهية هذه ونخفّفها حتى إلى محوها. وكما أحسن أحدهم القول: "أكثر الناس يُولدون أصليّين ثمّ ينتهون نسخاً".

هذا، في الحقيقة، شكل من أشكال اللاأخلاق لأننا عندما نشرع بطرح خصوصياتنا عنّا فكأننا نقول لله إنّنا لا نريد أن نكون الشخص المميّز الذي خلقه ليكون، وإذا فعلنا ذلك نأخذ في فقدان حرّيتنا. الشخص

الذي يماشي الجمع كيفما اتّفق ليس شخصاً حرّاً. لا يتمتّع بحياته الخاصة بل يجعل الآخرين يحيونها عنه. عليه أن يتبع القطيع وليس عنده إلاّ القليل أو لا شيء يقوله في شأن وجهة سير هذا القطيع. يبدأ بفقدان الطاقة على التفكير والعمل بنفسه ثمّ يصل أخيراً إلى حدّ يأمل فيه أن يقول له الآخرون ماذا عليه أن يفعل وإلى أين يتوجّه. والنتيجة تكون أنّه لا يعود شخصاً فريداً مميّزاً بعدُ، مخلوقاً على صورة الله، بل مجرّد تكملة عدد.

مؤامرة شيطانية

في الحالة التي وصفنا تأثير شيطاني. نحن نعلم أنّ الشيطان دائماً ما يحاول أن يبقى مجهولاً. لو كان ليظهر كشيطان فما كان يجد أحداً يتبعه. لذلك يتّخذ شتّى أنواع الأقنعة. القدّيس بولس يقول عنه إنّه يظهر أحياناً كملاك نور. أحد تكتيكاته المفضّلة أن يجعلك تقتنع بأنّ الجميع يفعلون ذلك وأنّ هذه هي موضة العصر. وإذا كنتَ لا تفعل ما يفعله الآخرون فلا بدّ أن تكون شاذاً ولست في المستوى ورجعي. لن يقول المجرّب أبداً: "تعال أعلّمك الخطيئة"، بل سيقول دائماً: "هيّا أُريك أمراً مهماً، أمراً ممتعاً، أمراً سوف يجعل حياتك أغنى ويجعلك أكثر شعبية من ذي قبل".

عبادة الرأي العام

إذ يفعل المجرّب ذلك يستغل إحدى ضعفاتنا، عنيت بها عبادة الرأي العام. منذ قرن مضى كتب هاربيت مارتينو أنّ عبادة الرأي العام هي الديانة الشائعة في أميركا. منذ ذلك الحين جرى تأسيس المعهد الأميركي للرأي العام ووكالات شتّى للاستطلاع.

في عالمنا الدهري الاتجاهات والميول أكثر أهمية من المبادئ والأخلاق. في كل حال، كثيراً ما نسمع القول يتكرّر: "خمسون مليون فرنسي لا يمكنهم أن يكونوا على خطأ". صحيح أنّ خمسين مليون رأي يمكن أن يجعل فكرة ما شعبية ولكنّه لا يجعلها صحيحة. خمسون مليون فكرة خاطئة لا تبلّغ إلى الحكمة بل إلى الخطأ الهائل. إذا كان رأي إنسان ما خاطئاً فإنّه لا يصير صحيحاً لمجرّد أنّه ينتشر ويصير شعبياً. الحقيقة لا علاقة لها بالأرقام. غالبية الرأي العام هي التي حكمت على يسوع بالموت. سأل بيلاطس الحشد: "ماذا عليّ أن أفعل به؟" أجابه (الرأي العام): "اصلبه! اصلبه!"

حسناً فعل كولومبوس حين لم يشأ أن يعبد الرأي العام في زمانه الذي ظنّ أنّ العالم مسطّح أو الإخوة رايت أن الإنسان لا يستطيع أن يطير البتّة!

عبادة هذا الإله المزيّف، إله الرأي العام، بلغت حتى بعض الكنائس. أحد اللاهوتيين سُمع يقول: "إنّ قانون الأخلاق الذي لا زلنا نعلّمه ينبغي تغييره. ليس هناك اثنان في المائة من شعبنا يؤمن به أو يعيش على أساسه بعد. وما فيدة دستور أخلاقي إذا لم يكن هناك من يسلك فيه؟"

هذا اللاهوتي المزيّف بحاجة لأن يقرأ كلمة الله أكثر قليلاً من استطلاعات الرأي العام غالوب. لا سيما متى ٥: ٨ حيث قال يسوع: "لأنّي الحقّ أقول لكم إنّي أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل". إن سلطتنا في شأن الصح والخطأ لا تقوم على أساس عدد الناس الذين يفضلونها بل على الله الذي كشفها. ناموسه لا يتغيّر ليوافق هشاشة الطبيعة البشرية.

حين تكون في روما

تكتيك آخر يُستعمل لحملنا على اتّباع الجمهور هو النصيحة التي تتضمّنها الكلمات الشائعة: "حين تكون في روما افعل ما يفعله الرومان". عندما يخبرنا الناس بذلك علينا أن نقول لهم: "أي رومان؟ الفقراء؟ متوسّطو الحال؟ الأغنياء؟ الإكليروس؟ بائع الموز؟ الشيوعيون؟ البابا؟" أترى؟ هؤلاء كلّهم يعيشون في روما. وهم لا يعملون الشيء عينه. كيف بإمكاني أنا أن أعرف ما الذي يفعلونه كلّهم؟ ولماذا عليّ أن أتبعهم؟ لماذا لا أكون أصيلاً؟ لماذا لا أفعل ما يختصّ بي؟ لماذا لا أسير بحسب مبادئي الخاصة؟

وهناك تكتيكات أخرى مستعملة لجعلنا نتبع الجمهور، مثلاً، علينا أن ندرك أنّ الشخص الذي يعيش في الخطيئة يشعر بعدم الأمان، بالقلق، بالذنب. وهذه المشاعر، بصورة غير واعية، تدفعه إلى جرّ أكبر عدد ممكن من الناس إلى المركب عينه الذي هو فيه. كلّما زاد عدد الرفقة الواقعين في الجب الذي هو واقع فيه كلّما خفّ ثقل شعوره بالذنب كفرد. الشخص الذي بإمكانه أن يتطلّع إلى عالمه الصغير ويقول: "كل الناس يفعلون ذلك، أنا لا أختلف عن الآخرين" سوف يشعر مؤقتاً بذنب أقل أو بقلق أخفّ. لذلك علينا أن نحذر هؤلاء الناس الذين يحاولون أن يسحبوننا معهم إلى بؤرة الفساد لنساعدهم على التخلّص من شعورهم بالذنب.

قال القدّيس أنطونيوس الكبير مرّة: "سوف يأتي وقت يُصاب فيه الناس بالجنون، وحين يرون أحداً ليس مجنوناً مثلهم سوف يهاجمونه قائلين: "أنت مجنون، أنت لست مثلنا".

الملح والنور

المسيحي موجود في هذا العالم ولكنّه ليس من هذا العالم. حيثما خالف العالم المسيح قاوم المسيحي العالم. لا يسبح مع التيار بل عكس التيار. لا يتصرّف كما يتصرّف العالم لأنه مختلف. "أنتم ملح الأرض"، "أنتم نور العالم" بحسب قول يسوع.

هذا يذكّرنا بتيّار الخليج. إذا هبّت الريح شمالية في المحيط الأطلسي فإنّ المياه حول الخليج تزداد برودة على برودة. مع ذلك، مهما اشتدّ الصقيع حول الخليج فإنّ مياه التيّار الخليجي، بحدّ ذاتها، تبقى دافئة. لا تبرّدها المياه المحيطة بها بل تراها تحفظ حرارتها المعتدلة وسط مياه تشتدّ صقيعاً. هذه صورة المسيحي الأصيل. لا يتّخذ حرارة العالم من حوله. هو منظّم للحرارة وليس مقياساً للحرارة. بدل أن يتأثّر بالطقس يخلق الطقس.

لماذا المسيحي مختلف؟

المسيحي مختلف لأنّه "في المسيح". القدّيس بولس يستعمل هذا التعبير أكثر من ثمانين مرّة في رسائله. المسيحي لا ينسى أبداً حضور المسيح. يسير مع المسيح كل يوم. دم المسيح يسيل في عروقه نفسها. لا يقرّر شيئاً دون أن يطلب هداية المسيح. ولا يقوم بعمل ما دون طلب معونة المسيح. هو في المسيح تماماً كما هو في الهواء الذي يستنشقه. لهذا السبب اعتبر القدّيس بطرس المسيحيّين الأوائل شعباً يختلف اختلافاً كبيراً عن غيره: "وأمّا أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أُمّة مقدّسة، شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١

بط ٢: ٩).

على الأهل المسيحيّين الأرثوذكس أن يلازموا أسلحتهم. ونقصد بذلك أن يعبّروا عمّا يؤمنون به قدر استطاعتهم وأن يضعوا المعايير والإرشادات ويتمسّكوا بها. نحن نعرف أنّ أولادنا سيكنّون لنا العرفان متى كبروا بسبب المعايير والقواعد التي أصررنا عليها في الماضي في تعاملنا معهم. هذا كان صعباً جداً يومها بسبب المقاومة التي أبدوها نتيجة ضغوط رِفقتهم عليهم (أنّ كل الناس يفعلون ذلك). لذلك قد يكون مناسباً للأهل أن يتعاونوا فيما بينهم ليضغطوا قليلاً، على طريقتهم، ويخفّفوا من ضغط رِفقة أولادنا عليهم.